حصاد المطر

اسم الكتاب: حصاد المطر (مقالات)
اسم الكاتب: شريف محمد كمال
تدقيق لغوي: شيرين عابدين
تصميم الغلاف: محمد سعد
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولى – 2020 م
رقم الإيداع: 2020 / 21307
الترقيم الدولي: 978 – 977 – 6852 – 15 – 0

arabiclibrary2017@gmail.com
almaktaba79@gmail.com
Facebook.com/arabiclibrary2017
01030365801 - 01014977934

جميع الحقوق محفوظة

للمكتبة العربية للنشر والتوزيع، ولا يجوز استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا الكتاب، أو استنساخها أو نقلها، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، دون الحصول على إذن خطي من الناشر.

حصـــاد المطـــر

شـــريف محمد كمال

إهـــداء

أهدي هذا الكتاب إلى المعنى الأصيل لمفهوم الكفاح،

إلى الرجل الذي يؤمن بمبادئ لو آمن بها رجال الأرض ما انقرض ذئب تسمانيا إلى الأبد،

ولظلت الفراشات الملكية تحلق بسكينةٍ فوق أزهار الفينوس القاتلة!

أبي العزيز، إليك هذا الكتاب.

التمهيد

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

في الحقيقة لن أجد بداية أشد بها أطراف الحديث معك أفضل من تحية الإسلام، ولعلك تعرف أنني لم أضع في الحسبان أن يأتي يوم يكون هناك كتاب يحمل اسمي وفي أوراقه كلمات صادرة من عقلي، ولم تراودني لحظة من لحظات الذئب المملة صناعة عملًا أدبيًا يصبح بمثابة إيذان لدخولي هذا الطريق الفكري العتيق.

لقد كنت مكتفيًا ببعض السطور على صفحتي الخاصة بالفيس بوك، راضيًا كل الرضا بالإعجابات الشحيحة من جانب أصدقاء الصفحة وبعض الأقارب، بداية من صديقي طيب القلب الذي يمنحني الإعجاب فقط على سبيل المجاملة واستجابة لأعراف الصداقة، مرورًا بأستاذ رياضيات فاضل لا أتذكر أنه منحني تفاعلًا مع أي منشور، لكن كنت أسعد دائمًا بثنائه على كلماتي بواسطة ابنه الذي أعتبره أحد إخوتي وربما تزيد معزته عندي أكثر من معزتي للخروف الصغير بيجي الذي عثر عليه أبي في أحد شوارع بغداد وأحضره إلينا، وقد كان ذلك قبل أن يقوم عمي بذبحه مستغلًا غياب أبي، وبرغم مذاق لحم بيجي اللذيذ لكني لن أغفر لك تلك الجريمة عمي العزيز.

ثم نقف لحظات مع صديق أعتز به كثيرًا، رجل لا تقل فصاحته وموهبته عن شعراء البادية في شيء، الأستاذ ماجد طعمة، شاعر لبناني رفيع الكلمات، هو شيء نفيس بقي من أيامٍ سِمان، لم أجد لحبه وعشقه لمصر مثيلًا في حياتي.

ثم أختم قائمة المعجبين بفتاة رائعة أعتاد وصفها بالأميرة وبرغم فارق السن بيننا لكني أعتبرها صديقة وأخت كبرى، فضلًا عن أنها دائمًا ما تراني وسيمًا، عكس إخوتي الملاعين الذين دائمًا ما يتساءلون: كيف لهذا المسخ أن يكون أخًا لنا؟

أما بقية الأصدقاء فلديهم من العذر ما يمنعهم من قراءة كتاباتي حيث منهم من أخذته دوامة الكفاح، ومنهم من يرى كتابتي ليست سوى سخافة ومضيعة للوقت ويتصدر هذه القائمة بكل جدارة أمي العزيزة، التي ما زالت تقسم لي أن ولادتي وجلبي إلى العالم لم تكن بالفكرة الصائبة على الإطلاق.

ويشاركها في هذه القائمة بدرجات أقل ابن عمي النرجسي الذي يقرأ سطوري بحثًا عن أخطاء لغوية تمنحه نشوة من شأنها إعطائه سببًا منطقيًا للبقاء على قيد الحياة.

وبالنسبة إلى أخي الوسيم أبيض البشرة، وموقفه من كل هؤلاء فالأمر معه كالكر والفر؛ أنال منه وينال مني، وتبقى صراعاتي اليومية معه دائمة لا تنضب.

والتحية تبقى لك أخي الأكبر ولزوجتك ابنة عمي، التي تتمنى لحظة تسمع فيها صوت مصطفى الأغا عبر الهاتف، بنبرتهِ الهادلة السعيدة، مهنئًا إياها حصولها على المليون ريال، بجانب أمنيتها الدائمة في التخلص من النيش ذي اللون الغامض، أما أختي الكبري فأي كلمات شكر يمكنني منحك إياها!

ولنعد إلى صلب الكتاب الذي راعيت فيه أمورًا عِدة، من الواجب إخبارك بها

أولًا المرونة في صياغة المضمون:

والهدف من ذلك أن يصبح الكتاب في متناول جميع الفئات الفكرية، بحيث إنك ستجد أحد موضوعات الكتاب تختلف لغته عن لغة الموضوع الآخر ما بين ضخامة الكلمات وبساطة الحديث.

ثانيًا التشويق الممزوج بالحكمة:

يمكنني القول إن هذا العنصر أعتبره ركيزة الكتاب وعموده الفقري كوني من تلك المدرسة التي تُحبذ الحديث المُفعم بالقصص والحكمة مما يخلق لدى القارئ شغفًا وفضولًا حتى آخر سطر من كل موضوع.

ثالثًا التمسك بالأسلوب الساخر والحبكة الدرامية الخاصة بالكاتب:

أشعر بسعادة كبيرة حين يضعني أحدهم في خانة الأدب الساخر، وإن كان الأمر يتطلب مني حبكة درامية تناسب هذا الأسلوب الرفيع؛ لذلك تجد بعض القصص التي فضلت استعارتها من الأثر مختلفة تمامًا عن القصص الحقيقية من جميع الجوانب سواء من ناحية المصطلحات أو التشبيهات بجانب إصباغ القصة بلونٍ واقعي يحترمه العقل بحيث في النهاية ربما تنفي افتراضية العلاقة بينهما.

كتاب "حصاد المطر"، مقالات متنوعة تفوح منها رائحة القهوة، مجموعة من السطور الخفيفة الظريفة، التي أرجو أن تنال استحسان الجميع خاصة أنني بصدد أول تجربة كِتابية أخوضها في حياتي.

*****

المقدمة

أومِن دائمًا أن النجاح قد يأتي من صغائر الأسباب، رُب بذرةٍ رميتها لم تلق لها بالًا، فما لي أراك الآن مشدوهًا نحو شجرةٍ تناطح أشجار الكرز طولًا وجمالًا!

قياسًا على ذلك فإن الأفكار المتعاركة في جوف عقلي والكلمات الباهتة كمذياع جدي الأنتيكة أعتبرها سببًا مقبولًا يدفعني لإخراج هذا المحتوى الأدبي من جلدة المقدمة إلى جلدة النهاية.

سطور من الهذيان تراودني، أفكار مُشوشة مثل تلفاز أبي القديم الذي طالما أُقنعه بشاشة مُسطحة حديثة بدلا عنه، لكنه دائمًا ما يرفض مُعللًا ذلك بقوله:

"يا بُني إن هذا التلفاز يُذكرني بأيامي السِمان وسنوات الكدح في أرض العراق وبلاد الخير.".

ولقد كنت على وشك إخباره بمعلومة كفيلة بتحطيم معنوياته وحماسته كثيرًا: "إن العراق الجميل ذهب يا أبي فما بالك بذلك التِلفاز القديم!".

في النهاية قررت التزام الصمت، كون العراق تظل دومًا الوطن الثاني في نظر أبي، أبشع شيء هو أن تخبر العاشق برحيل المعشوقة إلى الأبد.

كل شيء جميل في مُخيِّلة أبي تعني كلمة واحدة "العراق أرض آشور العظيمة وعاصمة الرشيد التليدة"، الذكريات القديمة التي لا يتوانى مُطلقًا عن تذكيرنا بها، أيام الريعان والصبا في شوارع النجف وسوق بغداد الكبير.

لقد كان بالفعل أهل العراق مذهلين، ويعشقون كل ما هو مصري ويعتبرونها بمثابة علاقة كاثوليكية لا رجعة فيها، لكن أبي ذهب بعيدًا عن هذا المفهوم قائلًا: إن شعب العراق يعتبر المصريين جزءًا أصيلًا من هويته العراقية، يعشقون كل ما هو مصري خصوصًا حينما يتعلق الأمر بأي شيء يخُص ليلى علوي، فتاة أحلام شباب العراق على مر الزمن ولا سيما أنا وأحد أصدقائي الذي أفضل عدم ذكر اسمه هنا.

ولنترك أبي وأحلامه الوردية وعشقه الأبدي للعراق ونعود إلى موضوعنا الأساسي، إن عقلي أصبح ساحة كبيرة من الكلمات الكثيفة، أردت أن أطلق هذه الكلمات في الفضاء الواسع، غير مكترث بالتلوث المرئي والسمعي الذي قد ينتج جراء ذلك، وليقرأها من هو سيئ الحظ مثلي، وهؤلاء بالطبع ما أكثرهم في تلك الرُقعة السحيقة.

وأنا هنا لا أدعي العِلم في تلك المقالات، بل هي اجتهادات من مواقف وشواهد تعلمتها من رحلتي المقبولة في الحياة، ولا علاقة للفكرة بحكمة ما، أو عقل يزن الأمور بميزان دقيق حساس كعقلية لقمان الحكيم، الأمر بِرُمته اجتهاد قد أصيب أو ربما أخطئ والحُكم يعود إليك في النهاية.

كما أنني في الحقيقة من هواة كتابة المقالات، أعشق دائمًا فكرة التنقل النوعي، أما السير على وتيرة منتظمة فتُصيبني في الحقيقةِ بالملل، أحب دائمًا التحليق عبثًا لا شيء يحكُمني، لا قواعد تلجِم لساني عما أريد قوله، وبالإضافة إلى أنك لن ترى مني نصيحة واحدة، أقسم لك بذلك وهذا يعود إلى سببٍ شخصي بحت؛ فحياتي يا أخي العزيز أعتبرُها سنوات وأيام من الأخطاء، كل يوم أقترف خطأ أكبر من الذي سبقه، القرارات التي أتخذها دائمًا ما تكون خاطئة، لا أتعلم نهائيًا من دروس الدهر، أحدهم يُخبرني بكلمات قاسية ومُهينة في أثناء غضبه، فأقنع نفسي الغاضبة أنها مجرد سقطة لسان لا أكثر رغم أنه صوبها في وجهي مئات المرات.

عليك أن تعلم يا عزيزي أن هذه مجرد مقالات لن تُغيرك ولن تقلِب حياتك رأسًا على عَقِب، فضلًا عن أنني لا أعتبر نفسي كاتبًا بالمرة، ولم ينتبني هذا الشعور في وقت من الأوقات، وصف ليس في محله، مجاز مُضلل ورداء واسع كملابس أمي التي كانت تُحضرها لي في طفولتي، حتى بعد أن أصبحت شحطًا ذا جسد مُترهل، ما زالت الملابس التي ابتاعتها في الطفولة واسعة كما هي لم تتغير، بالتأكيد كل شاب وفتاة يحملان الجنسية المصرية يعرفان هذه المعاناة جيدًا.

كل ما في الأمر أنني شاب تقتلني العُزلة، فأعددت هذا الكتاب كي أصنع حديثًا معك لبضع دقائق ليس أكثر من ذلك.

أما إذا اعتقدت أني سأتحدث عن معاني وأحاسيس صائحًا: هيا أيها الأقزام قوموا برمي الصحون في الهواء إن بابلو بيجينز يكره ذلك كثيرًا، فلا تضع ذلك في جُعبة تخمينك، ولن ترى في هذا الكتاب سوى بعض المقالات المتنوعة الشيقة التي ستمنحني صداقتك الثمينة على إثرها، فقط تذكَّر أنها مجرد مقالات ولا تبتعد بتخمينك أكثر من ذلك: فلن تراني أتحدث عن نظريات فلسفية، بل سأروي لك رواية ما قد تتوقعها مني في بعض الأحيان، كأن أقص عليك باستفاضة عن حياة جنود الرايخ بين جحيم الثلج وأنياب الدببة الحمراء، أو حديثي عن رجل كولومبي مخمور يتسكع في حواري المكسيك تصيبه طلقة نارية طائشة تطرحهُ أرضًا مُضرجًا بدمائه حتى لقي مصرعه، ثم يأتي على إثرها المُحقق الشاب الوسيم ذو الشارب الخفيف، والمِعطف الأصفر الباهت، ويبدأ التحقيق في تلك الواقعة، رجل أجنبي يُقتل في بلد غريب! الأمر سيكون في غاية الحساسية وسيُخلف عواقب وخيمة بين دولتي المكسيك وكولومبيا، بالرغم من أن صاحب المعطف يعلم تمام العِلم أن من قتله هو وغد من أوغاد عصابة كارتل تيخوانا الخطيرة، المنتشرة أفرادها في كل ضواحي المكسيك.

ثم يصحو ضميره فجأة ويستجمع قوته وشجاعته عازمًا على محاربة هؤلاء القتلة المجرمين، وذلك بعد سماعه خبرًا صاعقًا اجتمعت بسببه المتناقضات من الأفكار والعواطف وهاج في نفسه الرعب ورغبة الانتقام في

آن واحد، حين علم أن ذلك الرجل الكولومبي المقتول هو أبوه.

هذا ما صرح به صديقه الطبيب آليخاندرو، حين لاحظ بمحض الصدفة عند التشريح علامة منحوتة على جسد الكولومبي المقتول تُشبه تمامًا العلامة المرسومة على كتف صديقه المحقق!

كل ذلك سيكون في مشهد مؤثر للغاية، مصحوبًا بموسيقا لاتينية خفيفة تُضفي جوًّا من الصدمة المطلوبة.

وبعد ضغط شديد من جانب الابن تضطر والدته الاعتراف بالحقيقة التي ظلت تُخفيها طيلة سنواتها عنه.

لقد جمعتنا الصُدفة بحانةٍ صغيرة في تِكساس، وسامته وعيناه الزرقاوان وجاذبيته كل ذلك قد أثار انتباهي نحوه، فقد كان رجلًا عظيمًا بحق يا بُني لا يستحق ذلك المصير إطلاقًا.

ليبدأ صراع شديد بين السلطة المكسيكية وعصابات الشوارع المُسلحة التي سيُكتب للأخيرة الظفر في النهاية.

وقد أقص عليك بعض الحكايات الحزينة التي وقعت بالفعل، وجرت أحداثها في الواقع كتلك القصة التي شهدتها العاصمة الفرنسية باريس وبطلها شاب إفريقي تمنى في أحلامه أن يكون لديه وطن آخر غير الوطن الذي تناثرت قواه وأرضه، لتأتيه الفرصة في طبق من الذهب الخالص وذلك حينما شاهد طفلة فرنسية صغيرة كادت أن تقع من شُرفة في طابق علوي مواجهًا

الشارع ليركض الفتى تجاه الطفلة المذعورة، مُتسلقًا المبنى كطرزان الغابة، ثم حمل الطفلة بيده القوية وأنزلها على الأرض بسلام وسط ذهول الجميع ليُصبح ذلك الشاب هو محور حديث جميع الصحف الفرنسية واصفين إياه بالبطل الخارق مما جعل الرئيس الفرنسي يطلب مقابلته بين جدران الشانزليزيه، ويمنحه المكافأة التي كانت بمثابة حلم بعيد المنال بالنسبة إلى شاب إفريقي مُهاجر لم يهده الرئيس الفرنسي مالًا أو ذهبًا أو قِطعة من الكرواسون الفرنسي اللذيذ بل أهداهُ ما هو أفضل من ذلك، أعطاه ماكرون وطنًا يعيش فيه؛ فلقد منحه الجنسية الفرنسية، حلم الشاب قد تحقق في لحظات، وقد ظن أنه لن يحدث أبدًا فكانت هذه الأمنية في نظره مجرد أضغاث أحلام لا يمكن أن تُصبح واقعًا.

ولكن هل انتهت القصة بذلك، وكما هو المعتاد في كل الأفلام والمسلسلات، البطل ينتصر في النهاية وينتهي الفيلم بتحقيق البطل ما كان يسعى إليه! بالفعل كل هذا نشاهده في الأفلام لكن القصة واقعية كما ذكرت في البداية وليست من نسج خيال المؤلف، لا كاميرات هنا ولا ميكرفونات معلقة هناك، لا بطلة تركُض خلف البطل والأشرار سيموتون حتمًا مهما بلغ وقت الفيلم، وإذا قاموا بقطع رأس البطل لا يهُم، سينمو للبطل رأس جديد أكثر أناقة من الرأس السابق، ويعود إلى الحياة فينتقم من هؤلاء الأعداء الذين قطعوا رأسه وينتهي الفيلم بمشهد عبثي والقُبلة الساخنة التي تتوسط الجثث

وينتهي الفيلم عند ذلك.

أما في هذه القصة الواقعية فكان قطع الرأس أفضل لهذا الفتى مما حدث له في النهاية، فحينما قام الشاب بذلك العمل البطولي مرورًا بمقابلة الرئيس الفرنسي ماكرون في قصر الشانزليزيه ومنحه الجنسية الفرنسية تكريمًا له عن بطولته في إنقاذ الطفلة صار لكل ذلك صدى واسع في جميع القنوات الإخبارية في العالم، وقد أصبح اسم الشاب وصوره حدثًا على تويتر وكل صفحات التواصل الاجتماعي.

ومن بين الدول التي سمعت عن الخبر بلده الأصلي وموطنه الأم فيُبحثُ عنه ويُستدعى إلى الخدمة العسكرية في دولته، وكان لزامًا عليه أن يدفع ضريبة الدم لوطنٍ لم يمنحه أي شيء.

ليُصبح الشاب الذي كان من المفترض أن يكون الآن مُرتديًا زي العمل المدني، جالسًا على مقعد شاحنة مطلية بلون الكِلس تجوبُ شوارع باريس وحواريها بأراضيها النظيفة ومبانيها المُطرزة.

وقد كان من المقرر أنه سيتعشى مع حبيبته الجديدة إيليانا في مطعم لاغوردين الشهير بعد نهاية الدوام.

هو الآن جندي حاد الملامح عابس الوجه، مُرتديًا سُترة عسكرية ناصعة اللون تعود ملكيتها لأحد الجنود القتلى، مُطرزًا عليها علم بلاده تراه جالسًا بصمت في عربة خلفية لشاحنة عسكرية مهتكة تسير في طريق قاصٍ بأدغال

إفريقيا، يتبادل نظرات الحسرة مع أشجار الباوباب الحزينة فكلاهما يحملان الألم نفسه، فالأول أصابته لعنة الأرض والثانية أصابتها لعنة الانقراض، هامسًا لنفسه بكلمات حزينة "بالأمس كنت فرنسيًّا والآن صِرت ملعونًا وكأن جدتي ساحرة رحلت فورثت رداء لعنتها إلى الأبد، يا لها من رقعة ظلماء لم أستطع الفرار منها، فلو كنت أعلم ذلك لتركت الطفلة تسقط في جهنم وليس على الأرض!".

تنتهي القصة عندئذ، فمن المحتمل أن هذا الشاب الإفريقي قد قُتل برصاصة خطأ لتكتمل بذلك دائرة اللعنة!

بكل تأكيد القصة جميلة ومؤثرة للغاية وأكاد أشتم رائحة دموعك قادمة من إحدى جنبات عينيك، ولأن دموعك غالية عندي فقد قررت العزوف نهائيًا عن كتابة أي كلمة تتعلق بهذه القصة المأسوية وسأعود مرة أخرى إلى فكرة المقالات، فأنا شخص عطوف وليس من أجل رواية حمقاء مؤثرة تكون سببًا لبكائك على ذلك الإفريقي المسكين.

وعوضًا عن ذلك، فإني سوف أصطحبك في رحلة عبر قطار يسير تحت قطرات المطر مستحضرًا فيك روح سقراط وأفلاطون عقل ديكارت وثقافة شكسبير، دكتور الجامعة الوقور الذي يعتاد طردك من محاضراته.

ولنأخذ الرحلة بطريقة عشوائية بعض الشيء، لا نلتزم بأزمان مُحددة وكأن في حوزتنا عجلة الزمن العجيبة.

قد نجد أنفسنا في قلب لندن، وتحديدًا مُقاطعة كوفنتري لنعرف قصة الأميرة التي ضحت بحيائها من أجل الطبقة البائسة من الفقراء، وبتلقائية عجيبة نجد أنفسنا بين عصابة من المُنافقين يختلفون عن الأميرة الجميلة في كل شيء، وربما تكون نهايتهم في جوف هيكلٍ عملاق من الخيزران، وبينما أنت تبتلع ريق الشهية كلما تنظر إلى قطع الحلوى المصفوفة بعناية خلف ذلك الجدار الزجاجي، أكون قد زحفت بجيش جرار من العميان ناحية الأناضول والبحار السبع، وربما تصبح من المحظوظين الذين سيحملهم القدر للجلوس مع بعض الأثرياء، تستمتع بقصة البجع الحزينة، ثم سرعان ما نذهب إلى وسط العاصمة باريس كي نلحق بوجبة الغداء الخلطبيطة بالصلصة في مطعم جوستو الشهير.

وبعد هذه الوجبة الشهية سوف يتطلب الأمر أخذ قسط من الراحة وسيكون في تلك البقعة الثلجية المُتكئة على ذلك الجبل الجليدي مدينة "سفالبارد" النرويجية، لكن احذر يا رفيق الدرب فنحن بلا شك قد قصدنا المكان الخطأ، إننا على مقربة من "مملكة الدِببة" وخطوات معدودة تبعدنا عن الملك الجامح راغنر، الحاصل على عرش المملكة بطريق الخُدعة إثر قيامه بتسميم الملك، ونفي وريثه الشرعي الأمير النبيل لوريك برينسون.

هيا نترك هذا المكان الخطير، لكن قبل أن نتحرك خطوة واحدة عليك أن تذكرني بموعد مشاهدة النهائي الكبير بين السامبا والطليان كي أشاهد اللاعب المفاجأة الذي أعلنت عنه البرازيل قبيل افتتاح المونديال الأمريكي.

وفي النهاية صديقي القارئ، لك مُطلق الحرية في إلقاء حكمك على تُحفة العصر تلك، فإما المُباركة والتصفيق الحاد، وإما توجيه اللعنات والندم على أموال ذهبت سُدى وفي كلتا الحالتين صدقني سوف أكون في غاية الامتنان والحفاوة.

المال ليس غاية

في ليلة من الليالي رماني القدر السعيد بسهم الاختيار بأن أكون ضمن أفراد جلسة أرستقراطية مثيرة، تكاد تشتم فيها رائحة الإقطاع، وزمن البشوات والبكوات وحفلات أفندينا الصاخبة التي تنتهي عادة بتوزيع بعض الألقاب على شرف الحفل منحةً من جناب الخديوي.

جلسة كانت ثمينة بضيوفها، وأحاديثهم الشيقة التي يفوح منها رائحة المال، جلسة دسمة كان ينقصها الوليد بن طلال وبيل جيتس وعائلة ساويرس، أو من المحتمل أنهم جاؤوا مبكرًا وانصرفوا، فأنا في الحقيقة أتيت متأخرًا قليلًا.

بدأت الجلسة بتوزيع أنواع من السجائر مختلفة الجنسيات الألمانية والإيطالية، بالإضافة إلى ماركات أخرى من الصعب تحديد جنسيتها، قدرتي على إتقان اللغات لا تسمح لي بمعرفة أكثر من ذلك، سجائر إذا عرضتها على صاحب الكشك المجاور لمنزلك سيخبرك بثقة لا يخالطها شك في معرفته الأكيدة بالشخص الذي قتل جون كينيدي "أشكرك يا أستاذ عندي من الشيكولاتة الكثير!".

وبعد الانتهاء من مرحلة بابا نويل، المتمثلة في توزيع السجائر بأنواعها، اشتعل فتيل النقاش ببضعة ملايين بسيطة لا تتعدى المليار جنيه.

يحكي الضيف الأول كيف خدعه صاحب الفيلا بالساحل الشمالي ببيعه إياها، يكتشف بعد تسلمها أن النخل الذي بها لا يطرح البلح.

ثم سرعان ما أبدى الضيف الثاني غضبه وانزعاجه من عدم حضور الوزير الفلاني افتتاح مصنعه (الخمستناشر)!

ويأتي الضيف الثالث شاكيًا لنا معاناته مع سيارته المملة التي يصعُب على فقير مثلي تذكر اسمها، لكني أستطيع وصفها بكل دقة، فهي تلك السيارة التي يعلو مقدمتها فهد رشيق متأهِبًا للانقضاض على غزالةٍ شاردة عازمًا في نهاية شكوته بيعها بأي ثمن.

الأمر اللافت للنظر أن صاحب هذه السيارة قام بعرضها على جميع الجالسين باستثنائي، ولا أعلم لم! لكني في حقيقة الأمر لم أنزعج من هذا التجاهل المتعمد؛ فذلك النوع من السيارات لا يروق لأمثالي على كل حال يكفيني فقط مقعد بسيط في مؤخرة الميكروباص.

ثم تحدث الضيف الرابع، كي يسرد لنا بشغفٍ بالغ تفاصيل زيارته الرائعة إلى إيطاليا، وكيف أن السحر والجمال تراهما ساكنين بوضوح في مملكة الروم، ثم اختصني دون غيري بنظرة استعلاء مريبة، وبعد أن أخذ رشفة من كأس الفودكا قائل للجميع: أتعرفون أيها الرجال ما البؤس الحقيقي في هذه الحياة، بالتأكيد لا تعرفون، إن البؤس الحقيقي في هذه الدنيا هو حرمانك من مشاهدة ديربي الغضب بين ميلان وإنتر في حين أنك جالس في مدرجات السانسيرو!

في الحقيقة لم أندهش من هذه المعلومة القيِّمة صراحة، فهي معلومة مألوفة لي بدرجة كبيرة، ووجدت لنفسي فرصة المشاركة في هذا النقاش الثمين فقلت بجدية: ديربي الغضب، نعم، نعم أعرفه جيدًا، هذا الديربي يشبه كثيرًا الصراع الكروي الدائر بين البلدية وغزل المحلة!

لا أعلم لمَ بمجرد تفوهي بتلك الكلمات، كادت ضحكاتهم الصاخبة أن تصل إلى سكان المريخ النائمين في ذلك الوقت من الليل كنت أخشى أن تكون صرخاتهم أيقظتهم مفزوعين، فيسارعوا على الفور بتجهيز جيشهم الفضائي، معلنين الحرب على سكان الأرض المزعجين.

كل ذلك سببه حديثي الذي لا أعلم لماذا استدعى كل تلك الصرخات!

لكن كن مطمئنًا عزيزي المحلاوي، ديربي الغضب بين البلدية والغزل لن يتأجل بسبب تلك الحرب الوشيكة؛ حيث إن جيش المريخيين لن يأتي إلينا، بل سيذهب إلى أمريكا كالمعتاد بصفتها قائدة العالم، لتبدأ مفاوضات عادلة بين قوى الأرض وقوى الفضاء.

ليجيء الدور على الضيف الخامس الذي كان قد عاد لتوه من اليونان بعد جولة سياحية استغرقت يومين فقط، وبعد أن قص حكايته مع البجع اليوناني الملون، وكيف كان البجع يسير في سرب منظم وألوانه الزاهية تتمايل فوق سطح ماء البحيرة الشفاف، وتلك الصُدفة السعيدة التي جعلته يتعرف على فتاة يونانية ذات شعر أسود داكن تخترقه بعض الخصلات الحمراء، وبتنورتها

القصيرة الملونة بألوان علم اليونان الأزرق والأبيض، إلا أن أحد الحاضرين قاطع حديثه بشدة وبصوت غاضب جعلني أنتظر منه قسمًا أنه شاهد رجلًا وزوجته وأطفاله السبعة يقطنون في حجرة واحدة، ولكني كنت رومانسيًّا لدرجة السذاجة حيث عبَّر له عن غضبه بتساؤلِ هل تستحق اليونان والبجع الملون والفتاة البيضاء ذات الخصلات المتداخلة يومين فقط، ما هذه الحماقة يا رجل! كيف سمحت لنفسك بذلك واستطرد قائلًا: اثنان في هذا العالم لن يغفر لهم الرب، أنت والمتخاذل باجيو.

كنت أرغب في فض هذا النزاع المحتدم، وأُزُف لهما البشرى بأن هناك مخرجًا لتلك الخطيئة التي لا تغتفر، وهو أن يجوز له كفَّارة تتلخص بقضائه شهرًا في جزر المالديف، تكفيرًا لتلك الجريمة في حق الفتاة اليونانية الحسناء والبجع الملون بألوانه الساحرة، ولأن المؤمن لا يُلدغ من جُحر مرتين؛ فقد تعلمت من التجربة السابقة، فالتزمت الصمت خوفًا من أن تكون جزر المالديف في نظرهم الآن مصيفًا تقليديًا لا يتميز عن مصيف جمصة في شيء والأهم من ذلك ألا أكون سببًا في استيقاظ سكان المريخ مرة أخرى.

كانت بحق جلسة ثمينة دسمة ينبعث منها رائحة الفودكا، وأدخنة السجائر الأجنبية بمختلف جنسياتها وأنواعها التي أسفرت نتائجها عن حقيقة واحدة وهي أن المال يمكنه فعل الكثير.

لقد أصبح المال بالفعل في هذا العصر متحكمًا في كل شيء، لكن أن تكون رجلًا ثريًّا تملك المال الذي يمكِّنك من التسكع برفقة فتاة حسناء ليست بالمهمة السهلة تمامًا، ولو قدَّرك الله على ذلك سيكون ثمة شيء قد افتقدته في رحلتك الطويلة في جلب الأموال وعندئذ قد لا يغريك البجع الملون نهائيًّا، ولن يثيرك وقتها تنورة الفتاة اليونانية وقوامها الممشوق.

عليك أن تعلم أن لكل شيء ثمنًا، ومن المحتمل أن يكون باهظًا في المنعطف الأخير لطريق الثروة، حيث إن شراء هاتف حديث يتطلب منك دفع مبلغ كبير من المال حتى يمكنك اقتناء ذلك الهاتف.

وعلى سبيل المثال فقد تكون هذه الضريبة هي الغربة، لتنجح بالفعل من صنع ثروة طائلة، ولكنها في المقابل ستسلب منك أشياء كثيرًا ما تمنيت بقاءها معك إلى نهاية الرحلة.

ستمنحك الغربة الكثير من المال، وفي المقابل ستحرمك من صرخات طفلتك الأولى، التي تعتبرها في نظرك أول فرحة نابعة من ذلك القلب التي أوجعته سهام الغربة؛ فقد تمنحك الغربة المال لكنها ستحرمك من حضور جنازة أبيك، الذي كان يعتبر هدفك الأول من جني المال أن تجعل ذلك الرجل ملكًا وتعوضه عن شقاء الزمن، ورحلة الكفاح الطويلة التي خاضها لأجلك أنت وإخوتك، وقد تمنحك الغربة الدولارات والذهب لكن صارت ملامحك في ذاكرة الأقارب وأصدقاء العمر تتلاشى من فرط الغياب، وقد تمنحك

الغربة كل ما حلمت به في حياتك، وفي النهاية ربما تلتهم منك أفضلها وأروعها؛ فتصبح عندئذ مثل الصقر البارع في التحليق، لكن ما قيمة البراعة إذا فُقِدت الأجنحة!

أما وإن كنت وطنيًّا واخترت الطريق الصعب، وظللت ماكثًا في وطنك تبدأ رحلة جمع الثروة، فإن انضمامك لِحلف داركولا وعشيرته قدر محتوم عليك، ورؤيتك لأطفالك وزوجتك لن تتحقق إلا بعد منتصف الليل عائدًا من عملك الشاق، ولتعلم أن امتلاء معدة مصاص دماء ضخم مثلك تحتاج إلى ساعات طويلة، ويصبح نتيجة ذلك شكوى زوجتك المتكررة من قلة الاهتمام متسائلة في حزن دفين أين ذلك الحب القديم! حينها ستجد نفسك حائرًا بين سؤالين، هل أظل أعمل جاهدًا حتى أكون ثريًّا قادرًا على شراء فيلا كبيرة وإن لم يكن بها نخل، أم أمكث بجانب هذه الحمقاء أتأمل جمال وجهها ونظل نثرثر معًا طيلة الليل، ولا أتمكن من الاستيقاظ والذهاب إلى العمل! فزوجتي المتذمرة ترغب في المال والذهب والسيارة، لكنها تحلم بزوجٍ على طراز أحمد عز في هيئته، وكريم عبد العزيز في خفة ظله وليست هناك مشكلة بالنسبة إليها إذا كنت رجلًا غامضًا طالما أن هذا الغموض يقرب مسافات الشبه بيني وبين يوسف الشريف!

وقد تأتيني منزعجة في يوم من الأيام تخبرني في تذمر ونفور أن أحد المتسكعين في الطرقات ضايقها بكلمات بذيئة، حينها تأخذني الشجاعة أو الحماقة في بعض الأحيان، وذلك في حالة إن كان المراهق الذي ضايقها رجلًا ضخم الجثة، فأتشاجر معه حتى أبدو أمامها مثل أنور وجدي، خصوصًا في معاركه نهاية كل فيلم حينما تتبعثر خصلات شعره يمينًا ويسارًا.

هكذا تريدك زوجتك التي لم تجلس معها فوق سفح هرم خفرع تتبادلان كلمات الحب والغزل، مفضلًا ارتداء عباءة العمل وضيق الوقت، هذا يعني أنك مجرم في نظرها لا تقل جرائمك عن جرائم ستالين في حق البولنديين البؤساء.

إنه المنطق بكل ملامحه القاسية، فلكل شيء ثمن، للغربة ضريبة، تأخرك في العمل لجمع المال كل يوم هو بمثابة ضريبة لا تشعر بها، والسبب في ذلك هو أن طريق المال لن يكون مفروشًا بالأزهار والورود كما تظن، ثمة ألم ما – حتمًا- ستشعر به، انقباضة قلب مفاجئة، نغزة مريبة في الضلع، آلام وصدمات ستأتيك في خلال هذه الرحلة الطويلة، لكن الأمر الذي يفوق المنطق، ويبدو وقتها صادمًا حقًّا هو، أن يسلبك المال كل شيء، فتجد نفسك في نهاية تلك الرحلة فقيرًا معدمًا، المال فقط هو من تملكه في حياتك، صندوق يعج بالذهب لكنه خاوٍ من المروءة والحياء والوفاء وفوق كل ذلك غضب الرب عليك، أتعتقد وقتئذ أنك أصبحت رجلًا ثريًّا، بالطبع سوف تصبح فقيرًا مفلسًا

تستحق الشفقة بكل تأكيد!

فمن الممكن أن تصبح غنيًا قادرًا على شراء بحيرةً مليئة بالبجع الملون، في حين يقطن أبوك وأمك حجرة تشبه الكهوف والأكواخ المظلمة، غير مكترث بحالهما ثم يموتان حسرة ويدفنان في مدافن الصدقة، وقد لا تعلم بموتهما إلا حينما يكبر أحد أبنائك فيسألك بشغف: أبي ماذا عن جدي وجدتي أين هما، ولم لا يقيمان معنا، كل زملائي يحكون لي عن حنان أجدادهم وطيبتهم.

وربما تكون شابًا ثريًا مدللًا تنتمي إلى أسرة ملكية تقطن القصور وفمك لا يفارقه السيجار، ويدك لصيقة دائمًا بكأس الخمر، وسريرك الوثير لا يفرغ من أجساد العاهرات، تصنع كل ذلك وأنت في وضح نهار شهر رمضان! هل تعتقد أن أناديك بالأمير، من السذاجة أن تنتظر مني ذرة احترام ناحيتك!

ومن المحتمل أيضًا أن تملك من المال ما يجعلك تضاجع كل يوم عشرات الحسناوات، وفي المقابل زوجتك اليوم على موعد مع شاب ينتمي إلى أسرة فقيرة استطاع تعويضها بما افتقدته معك!

الخلاصة التي يمكن الخروج بها من هذه المسألة، أن طريق المال ليس بالطريق السهل تمامًا، وإن كنت تظن عكس ذلك فعليك بترتيب أفكارك مرة أخرى.

ويأتي السؤال الذي يفرض نفسه بقوة على ساحة تلك الأوراق، ماذا بعد أخي العزيز، ماذا بعد شراء جُزر الكناريا أو أية جزيرة ساحرة تطل على محيط

ما! ماذا بعد ارتداء الملابس الإنجليزية، وتتزوج أميرة من قصر باكينجهام بعد صراع طويل صنعت منه أجاثا كريستي قصصًا وأبياتًا من الشعر، وبفضلك حققت كريستي العملاقة أكثر مبيعات حدثت لها منذ امتهانها الكتابة؛ لذلك فإن أسوأ سيناريو قد يحدث هو اعتقادك أن المال الذي تملكه بوفرة هو غاية لك وليس وسيلة تحقق به أهدافك ورسالتك، خاصة أن هناك أشياء لا تستطيع الثروة منحك إياها حتى ولو امتلكت أموالًا بقدر المحيط، أشياء كامنة تستعصي على المال دق حصونها بمجانيقه المصنوعة من الذهب والفضة كالسعادة مثلًا، فإذا كنت تعتقد أن الأموال قادرة على الإتيان بها فبكل صراحة أقولها لك أنت مخطئ أخي الكريم؛ فالسعادة تُمنح لا تُشترى، تنتابك لا تُصنع، هي باختصار نعمة يمنحها الرب لمن يشاء ويمنعها عمَّن يشاء.

أتذكر تلك الرسوم الكاريكاتورية المألوفة، حين لم يكن هناك وسائل للاطلاع سوى الجرائد والمجلات، التي كانت تبرز دائمًا بعض الفقراء المساكين الذين لا يملكون شيئًا من عرض الدنيا غير نفوسهم الطيبة وعدم خوفهم من الغد، الصورة واضحة تمامًا، حصيرة صغيرة بالية لا تحتويهم جميعًا بضع أكواب من الشاي ممتلئة إلى نصفها، وعلى طرف من أطراف الحصيرة قطة صغيرة تنصت إلى أحاديثهم، ومن حولهم أطفال سعداء يضحكون ويلعبون بالرغم من ملابسهم الرثة المتسخة.

وبينما هم منغمسون في أحاديثهم البسيطة تمُر أمامهم سيارة يتجاوز ثمنها ثمن منازل كل الفقراء الجالسين، يقودها أحد رجال الأعمال وبجانبه طفل يكاد لا يبلغ العاشرة من العمر ينظر مندهشًا من فتحة زجاج السيارة المطلة على الفقراء السعداء سائلًا أباه في تعجب: لم هم سعداء إلى هذا الحد يا أبي، فلا أرى سببًا لسعادتهم!

بالطبع لم يكترث الأب لسؤاله، بسبب انغماسه في مكالمة هاتفية تتعدى أهميتها بمراحل أهمية ولده الصغير.

ولقد شاهدت حلقة تليفزيونية قديمة للدكتور مصطفى محمود رحمه الله يتحدث فيها عن تلك النقطة بالذات، حين كان في رحلته المثيرة بين أدغال إفريقيا، عطش العلم وفضول المعرفة تدفعه دفعًا إلى العيش في تلك الأدغال المتوحشة بقبائلها الهمجية.

طبيب بدرجة فيلسوف مثل الدكتور مصطفى محمود لن يعثر على حكمته المأمولة بين الدروب المزدحمة، والشوارع المختنقة والأرصفة المغطاة بالقمامة وغبار العابرين، وسماء غير صافيةٍ تحلق في مدارها أدخنة المصانع وعوادم المركبات، وبحار تطفو على سطحها بُقع الزيت، وجثث الحيوانات النافقة، بجانب الأحاديث المبتذلة، والألسنة التي تطلق السباب كالطلقات المنضودة.

هذه العقلية المتفردة لا بد أن تبحث عن السعادة في مكان آخر بعيدًا عن كل ذلك العبث والصور المشوهة بطلاء الأبنية وضوضاء السيارات.

وقد عثر أخيرًا على الحكمة المفقودة هناك بين الأشجار الكثيفة والأحراش الاستوائية، وبالقرب من القبائل القاطنة تحت أشجار البانجا العملاقة، بين هؤلاء الرعاة العرايا الذين لا يبالون بيوم الغد وصراعاته، وسط هذه المملكة المتوحشة، وطنين ذبابة التسي تسي تكمن السعادة والصحة.

رجال وأطفال نصف عراة، نساء لا يمكنك التمييز بينهم وبين الرجال، تراهم يجلسون بسكينة ونشاط في دائرة مكتملة تتوسطها شعلة من نار وتزينها ضحكاتهم غير المصطنعة، التي تطغى على وجوههم، ومن حولهم الأطفال العرايا يرقصون ويتمايلون على دقات الطبول المصنوعة من جلد الماعز بحركات يحاكون بها رقصات الآباء.

وبرغم بساطتهم الشديدة وفقرهم الملموس يمكنك اشتمام السعادة بينهم، لا خجل، لا تجمل لا اكتراث لأي شيء، الخوف والقلق وأقراص النوم أشياء غريبة لا يعرفونها.

ترى في وجوههم السعادة بحق وستتساءل عن مصدرها، ولن تجد لها مبررًا، لا هاتف، لا سيارة فارهة، لا فتيات حسناوات، لا أموال وثروة، فقط السعادة هي من تحكم ذلك المكان بجدارة، ويمكنك الشعور بها في رماحهم الحادة التي تأتي لهم بالطعام، في عيون الأطفال العرايا الذين لا يمكنك أن تحدد ملامحهم من كثرة الذباب المتراقص على وجوههم، بين أبقارهم النحيفة، وخيامهم التي تنهار من أقل قطرة مطر، لكن يظلون سعداء وكأنهم ملوك لا

يحتاجون عروشًا، لا تاجًا وذهبًا لا منازل مزخرفة بحجر الجرانيت، عطفًا عن امتلاكهم الصحة الجيدة، بالرغم من أن الأمراض والعدوى يسكنان خيامهم، فالسعادة هي ما تُحصِن هؤلاء البسطاء من كل الأمراض التي تسكن براحة وسكينة بين حارات المُدن ومنازلها.

وفي نهاية حديثنا عن هؤلاء الرعاة السعداء، قد يحدثك عقلك بكلمات منطقية ومقبولة ثم تعود وتتساءل "همج، ومتعجرفون قذارة، كيف ذلك!".

بالطبع سيكون هذا التساؤل في سرك، فإن سمع أحد هؤلاء الرعاة تلك الكلمات المهينة في حقهم، المنطقية من وجهة نظرنا، على الأرجح فستتحول يا صديقي السائل إلى مأدبة عشاء على هامش التصالح بين قبيلتي النوير وقبيلة الدوبي.

أتذكر قصة تتجلى فيها قيمة السعادة بكل معانيها، وقد كان أبي يقصها لي أيام طفولتي، لكني لم أكن أتدبرها جيدًا ولم أتوقع أن يأتي يوم فأحكيها بنفسي!

القصة تحكي عن ملك في مملكة ما... لقد قلت ملك! أي يمتلك كل شيء في مملكته، البحار، والشوارع، والغزلان الشاردة في الغابات، كل شيء في حدود مملكته هو حق أصيل له.

هذا الملك لديه من الجواري ما يطفئ نور الشمس، العبيد والخدم تتعثر قدماه من كثرتهم، ينتظرون منه الأوامر بتبجيل وتعظيم، الكل يحلم أن ينال رضاه، أي أن أسباب السعادة تتحقق جميعها في مملكته؛ نعيم الحياة ورغدها،

الأموال والجاه، العبيد والجواري، إذن من المؤكد أنه أسعد إنسان على وجه الأرض.

لكن الحقيقة ليست كما افترضنا وتوقعنا، لقد كان أتعس رجل في مملكته ولم يكن راضيًا عما هو فيه بالرغم من الجحافل التي تحت قدميه وجواريه الحسناوات.

في صباح ذات اليوم استيقظ الملك على صوتٍ جميل يغني بهدوء ونعومة وسعادة، ولم يكن هذا الصوت العذب في عقل الملك مجرد صوت فحسب، بل هو صوت يخبره أن هذا القصر الذي يملكه يحمل بين جدرانه شخصًا أسعد منه إذ كيف ذلك وهو الملك هنا!

تتبع الملك أثر هذا الصوت من شرفته المطلة على حديقة القصر حتى اكتشف أن صاحب هذا الصوت الجميل هو خادم الحديقة، ليتساءل الملك متعجبًا، هل يبدو القدر منطقيًّا هكذا، ملك تعيس وخادم سعيد، أم هي العلامات الكبرى ليوم القيامة!

كان وجه الخادم يَنُم عن الطيبة والقناعة والسعادة، يَنُم عن وجهٍ يوحي بتفاؤل أنه لا داعي للقلق أبدًا.

هذا الخادم لديه زوجة صالحة مطيعة ولديهما من الأولاد والبنات سبعة، يملك منزلًا صغيرًا، وإن شئت قلت كوخًا كبيرًا بالكاد يستوعب الخادم وعائلته، وبالرغم من أن الفقر والبؤس يعششان في أركان الكوخ إلا أن ذلك

البيت البسيط بمثابة قصر في عيونهم من بذخ السعادة التي تملأ أرجاءه.

وحينما أُحيط الملك بكل المعلومات التي تخص ذلك الخادم القنوع والمبتسم دائمًا، ولأن الفضول صفة لا يمكنها أن تتواجد في ملك أو سلطان، أمر الملك جنوده بإحضار الخادم السعيد إلى بلاط قصره في الحال.

أتاهُ الخادم مهرولًا بعينين وجسد يتملكهما الخوف، حيث لم يسمع قبل ذلك عن خادم حديقة تم استدعاؤه للمثول أمام ملكٍ في بلاطه، إذن إن الأمر جلل.

وما إن شاهد الخادم الملك أمامه، حتى قال بخشوع ورأسٍ منخفض تجاه الأرض ويدين متشابكتين للأمام: علمت أن جلالتك تريدني في أمر ما، هل لي بخدمة يمكنني صنعها لك سيدي الملك؟

يقول الملك: لا أريد منك شيئًا، ولكني كل يوم أستيقظ على صوتك وأنت تغني بطريقة توحي بالسعادة!

إنني أعلم عنك الكثير أيها الخادم، أعلم عنك بقدر علمك بقدرتي الأكيدة على قتلك الآن، لقد علمت أنك خادم عندي، وراتبك لا يكفيك أنت وعائلتك، كيف لك بتلك السعادة والرضا؟

فيجيب الخادم بصوت هادئ أنه بالفعل يعمل لديه وهذا على حد وصفه بالأمر الرائع ويمتن لذلك كثيرًا.

أما من ناحية راتبه فهو يحصل على ما يكفيه، وما يستحقه وهذا في حد ذاته يرضيه؛ وله زوجة مخلصة وأبناء صالحون، سيكون من الطمع لو أراد أكثر من ذلك، وما دام هناك خبز يوضع على طاولة المنزل يوميًّا فلا داعي للقلق والانزعاج.

وبعد أن سمع الملك هذا الحديث لم يجد مفرًّا من إنهاء هذه الجلسة ومنحه مكافأة مالية صغيرة، ثم سمح له بالانصراف والعودة إلى عمله في الحديقة.

وفور رحيل الخادم، أمر الملك الجنود أن يستدعوا مستشاره كبير الوزراء في الحال، الذي سرعان ما لبى نداءه.

طلب الملك من الوزير ومستشاره الخاص حيلة من شأنها أن تنزع السعادة والرضا من حياة ذلك الخادم، وبعد تفكير عميق وتأنٍ وبحث طويل أتى الوزير في اليوم التالي بالحيلة المطلوبة، ثم أخبر بها الملك قائلًا:

سنأتي بحقيبة تحتوي على تسع وتسعين قطعة ذهبية ثم نضعها أمام بيت الخادم.

يبدو على وجه الملك انزعاج شديد سائلًا وزيره بفتور ساخر: أيها الوزير الأحمق أطلب منك طريقة تنزع بها سعادة الخادم فتكون الحيلة هي أن نعطيه ذهبًا!

يبدو أن التاريخ سوف يكتبني في أول أوراقه، ذاكرًا أن هناك حاكمًا في زمن ما قام بتزيين باب قصره برأس وزيره الأرعن ومستشاره الخاص.

لم ينتب الوزير أي نوع من الارتباك والخوف تجاه هذا التهديد الصريح، بل كان أكثر ثباتًا في حديثه ناصحًا مولاه: تمهل يا سيدي أنت لم تولَد ملكًا لكن الأيام والسنوات الطوال من نصَّبتك ملكًا فوق عرش أبيك، وعلى رأسك هذا التاج المرصع بالجواهر والماس، لو انتظرت قليلًا فسوف تنال مرادك بكل تأكيد، كن واثقًا في خطتي ودهائي، كن واثقًا في وزيرك يا مولاي.

فقال له الملك: هزمتني أيها الوزير العجوز لقد عرفت الآن لماذا أوصاني أبي قبل رحيله بقتل جميع الوزراء والمستشارين باستثنائك، حسنًا، أخبرني ماذا بعد وضع النقود الذهبية أمام منزل الخادم؟

صمت الوزير قليلًا ثم قال مبتسمًا بلهجةٍ تكسوها ثقة عمياء: وماذا بعد، هذا ما سيخبرنا به الخادم نفسه يا مولاي، ما علينا الآن سوى الانتظار حتى نجني الحصاد العظيم.

بالفعل وافق الملك على هذه الخطة الشيطانية، لكنه وضع شرطًا واحدًا كي تُنفذ الخطة على أرض الواقع، حيث اشترط على وزيره أن يقوم بهذه المهمة بنفسه بصفته صاحب الفكرة، فما كان من الوزير إلا أن وافق على الفور، ودون أن ينبس بكلمة واحدة قام بحمل القطع الذهبية قاصدًا بيت الخادم، فوضع النقود الذهبية أمام الباب خلسةً دون أن يكتشفه أحد سواء من أهل البيت أو الجيران.

وبمجرد أن وجد الخادم الحقيبة، وقيامه بفتحها أمام عائلته دوَّت الصرخات أرجاء البيت البسيط، وتحول بيت الخادم إلى مسرح من الضحكات والأفراح!

وبعد أن تأكد الخادم من نوم عائلته بالكامل جلس إلى طاولته كي يقوم بحصر القطع الذهبية قطعة قطعة، فوجدها تسعًا وتسعين.

وبالطبع أنت تعتقد أن الخادم سيحقق كل شيء، وتهمس في نفسك لو كنت مكانه سوف أحقق كل أحلامي، لكنه في الحقيقة لم يحلم بأي شيء لم يحلم بمنزل كبير غير ذلك الكوخ، وحياة تناسب آدميته بدلًا من تلك الحياة البائسة!

لم يفكر في أهل بيته أن ينتشلهم من حالة البؤس والفقر المدقع إلى حياة كريمة يسعدون بها ويشعرون بإنسانيتهم في مدارها، إذ صار يتساءل بحيرة عميقة، أين القطعة الذهبية المتبقية، من المؤكد أنها كانت مئة قطعة ذهبية لا تسعًا وتسعين، ليقوم بالتخمين وصنع إجابات في الوقت نفسه لربما تكون وقعت في مكان قريب من هنا!

ظل يبحث عنها في الشوارع القريبة من بيته لكن دون جدوى حتى أنهكه التعب قائلًا لنفسه: لا بأس سوف أعمل كثيرًا، وأتمكن حينها من شراء القطعة الذهبية الناقصة حتى يصبح وقتها عندي مئة قطعة ذهبية.

وهنا تبدأ معالم خطة الوزير الداهية في الظهور والتجلي، التي كانت بدايتها التلاعب في الجينات العصبية للخادم فمن الطبيعي بعد بحثه الطويل عن القطعة المئة أن ينام متأخرًا، ويصحو من نومته متأخرًا لتتحقق وقتها أولى أبعاد الخطة التي تتمثل في معاملته لزوجته وأولاده حيث صار عصبيًّا سليط اللسان، ملقيًا اللوم على أسرته في استيقاظه متأخرًا.

ثم سرعان ما تحقق البعد الثاني من الخطة المتعلقة بعمله في حديقة الملك، فعندما وصل الخادم إلى عمله، لم يكن يعمل بالصورة المعتادة والمنتظرة منه، فلم يقم بالغناء كما كان يفعل كل صباح حيث ظل يباشر عمله بهستيرية شديدة، وبوتيرة سريعة غير مريحة كعادته، وتفكير يكاد يفتك برأسه، الوجه البشوش الذي يملؤه الرضا والطمأنينة ذهب وحل مكانه وجه عبوس شاحب قلق!

لقد أصبح كل همه هو أن يستطيع توفير المال اللازم لشراء القطعة الذهبية المتبقية حتى وإن كان ذلك على حساب سعادته وسكينته إلى أن صارت حياته جحيمًا لا يمكن لأهل بيته احتمالها مطلقًا؛ فزوجته نفد صبرها من فرط بذاءته وصرخاته الغاضبة والمتكررة فتقرر الرحيل عن البيت دون رجعة، وما هي أيام حتى لحق بها أبناؤها واحدًا تلو الآخر، ففكرة العيش مع هذا الذئب البذيء في بيت واحد صارت مستبعدة ومرفوضة تمامًا.

كل ذلك بالطبع تحت ناظري الوزير الداهية الذي وضع الخطة مقتربًا أكثر وأكثر من حصد ثمارها، وبعد أن تأكد الوزير من نجاح حيلته الخبيثة هرول مسرعًا نحو قصر الملك يزُف له البشرى المنتظرة.

لقد انتصرت فكرته تمامًا، ونصيبه من الذهب ورضا سيده وحبه سينالهم بالتأكيد.

وحينما علم الملك قال لوزيره بدهشة: لقد توهمت أن ذلك الخادم حين يجد الذهب سيعيش هو وأهل بيته حياة العز والرفاهية، كنت أظن أنه سيبني قصرًا مثل قصري، ويجعل من زوجته وأبنائه أميرات وأمراء مثل أبنائي لكنه لم يفعل كل ذلك!

أجابه الوزير الداهية بعد أن تدفقت عليه حِكم الفلاسفة والعباقرة: إنها لعنة المال يا سيدي! قد تجعلك تشعر لوهلة أنك امتلكت الدنيا بما فيها، لكن وبدون أن تشعر تكتشف أنها سلبت منك راحتك ورضاك وحب الحياة، تجد نفسك في نهاية الرحلة سجينًا بين جدران الأموال التي ظننت أنها ستأتيك بالسعادة، مستيقظًا على واقعٍ مرير لا يختلف كثيرًا عن حياة الجحيم.

أترى بعد سماعك لتلك القصة أن المال قادر على فعل الأفاعيل أم أنه ضعيف لدرجة عجزه عن الإتيان بشيء بسيط كالسعادة! ولسوف تتفاجأ حينما تعرف أن المال ليس عاجزًا فقط عن جلب السعادة، ولكنه أضعف من أن يأتي لك بأشياء بسيطة ورائعة مثل النجاح.

فإن كنت من متابعي كرة القدم بشغف وتعتقد أن فشل الجيل الحالي لمنتخب البرازيل في الحصول على كأس العالم سببه حماقة مدرب أو ظلم تحكيمي في مباراة مصيرية، أو ربما السبب يعود إلى رعونة بعض اللاعبين أمثال نيمار وكوتينيو.

وإن كنت من الذين يعتقدون أن الهزيمة القاسية التي تلقَّاها منتخب السامبا على يد المنتخب البافاري بسباعية مُهينة في مونديال جنوب إفريقيا أنها محض صدفة، فاعلم أن ظنك قد شيدته على أسس غير سليمة، لقد استهوتك فقط كلمة البرازيل، فبمجرد أن تأتي كلمة البرازيل على مشارف أسماعنا نتذكر كل ما يتعلق بكرة القدم، حتى عَلَم هذه الدولة فور رؤيته في أية مناسبة سياسية كانت أو عسكرية نتذكر الساحرة المستديرة.

البرازيل تعني متعة كرة القدم، البرازيل تعني السامبا، البرازيل تعني بيليه، تعني روماريو، ريفالدو، وختامًا بالفتى الطائش وزعيم السحرة رونالدينهو، ففي تلك الأرض التي يشتد فيها طمُّ الفقر، والبائسون الذين لا يملكون في حياتهم غير كرة جلدية، وبأقدام الصبيان بائعي الجرائد، حكمت البرازيل كرة القدم سنوات عديدة.

والفضل يعود إلى هؤلاء السحرة الفقراء، القادمين من الأزقة الفقيرة وشواطئ الكوباكابانا، أصحاب مهارة الجينجا التي يعني تفسيرها خذها مني إن استطعت أو باختصار "دي نلسون " أحد أعظم لاعبي السيليساو وأفضل

من استخدم مهارة الجينجا في ملاعب كرة القدم، بالطبع أغلب الشباب من جيلي يدرك ما أعنيه تمامًا حينما أذكر اسم هذا اللاعب بالتحديد.

لقد كان الفقر سببًا أصيلًا في تتويج البرازيل بأكثر من بطولة دولية بجانب كأس العالم لأنهم ببساطة لم يملكوا وقتها سوى البسيطة الخضراء وكرة جلدية مهترئة.

ويمكنك أن تقرأ في مذكرات بيليه لتعرف أنه ظل طيلة طفولته يلعب بكرةٍ قماشية معبأة بالجوارب، شراء كرة قدم حقيقية تتطلب ثمنًا باهظًا، لا يمكن لعائلته الفقيرة أن تتحمله.

وقبيل افتتاح كأس العالم بأمريكا عام 1994 أعلنت البرازيل عن تجهيزها للاعب مفاجأة، سيكون بمثابة قنبلة كروية وسيصبح في المستقبل محط أنظار العالم نظرًا إلى مهاراته الخارقة وقدرته العجيبة في المراوغة وإحراز الأهداف، ذلك على حد زعمهم، ثم اختتمت هذا الخبر بتحذير شديد اللهجة، تحذير أقرب إلى الدعابة أكثر من جديته مفاداه إياكم ومواجهته!

يدِب التساؤل في جميع معسكرات المنتخبات المشاركة بالمونديال عطفًا على الفرق التي أوقعتها القرعة مع المنتخب البرازيلي في مجموعة واحدة، من يكون هذا اللاعب!

تأتي أولى مباريات المنتخب البرازيلي في المونديال الذي أقيم على أرض الولايات المتحدة الأمريكية لتكشف كاميرا النقل التلفزيوني حينما صوبت

عدساتها ناحية مقاعد البدلاء عن صبي جالس لا يتعدى السادسة عشرة من عمره بملامح باهتة تشبه معالم الأحياء الفقيرة في ريودي جانيرو وأسنان أمامية وشعر صغيرٍ مُجعد، وجسدٍ يختلف كثيرًا عن أجساد لاعبي كرة القدم، تركيبةً بشرية قريبة الشبه إلى حد كبير بالشخصية الكرتونية الشهيرة مونيكا.

وبمجرد أن جاءت العدسة صوب وجه الفتى الصغير، حتى أشاحت لنا عن اسمه مكتوبًا على شاشة التلفاز لنعرف بعد سنوات قليلة أنه بالفعل ليس باللاعب العادي، وكل ما قاله البرازيليون في وصفه حقيقة، وليست مجاملة أو مبالغة على الإطلاق، وتلك العبارة التي قالوا فيها "إياكم ومواجهته" لم تكن دعابة قطُّ؛ فهو اللاعب الذي قهر أسطورة الكوستاكورتا، وأزاح مالديني من عرش المستحيل، حين قام بمراوغتهما في ليلة من ليالي الكالتشيو المثيرة.

أقدم لكم أيها السادة، "الفينومينو" الظاهرة العجيبة، سيد أسياد اللعبة على مر العصور، دُخَان البندقية المتصاعد خلف الرصاصة المنطلقة "رونالدو لويس نازاريو دي ليما" جلاد الحُراس وقاهر المانشافت في ليلة لن ينساها أوليفركان ورفاقه الألمان.

ولكن انتظر، فالمفاجأة ليست هنا! فللأسف الشديد لم يتمكن المنتخب البرازيلي من الاستفادة من مهارات رونالدو الرهيبة في مبارياته بالمونديال الأمريكي؛ إذ تكمن المفاجأة الحقيقية في السبب الذي أجبر المدرب على عدم

الدفع به وهو أن اللاعب يعتاد مزاولة كرة القدم حافيًا وذلك للسبب الذي منع بيليه من شراء كرة قدم حقيقية.

الآن وتحديدًا بعد حصول البرازيل على مونديال كوريا واليابان واعتزال معظم اللاعبين الذين حصلوا على آخر نسخة مونديالية في تاريخ البرازيل طرأ على الخريطة البرازيلية تغير اقتصادي ملموس، الذي كان أبرز معالمه زيادة دخل المواطن البرازيلي، واجتيازه مرحلة التقدم ودخوله مرحلة الرفاهية بكل جوانبها، لتبدأ وقتها مؤشرات الاهتمام بكرة القدم بالهبوط حتى وصلت مراحل التدني.

الشاب البرازيلي البسيط الذي لم يكن يعرف غير مهارة الجينجا والمراوغة بالكرة فوق رمال الكوباكابانا صار مواطنًا مرفهًا يملك الأموال، بجانب الهاتف المتطور والسيارة العصرية، وبمرور الوقت أصبحت كرة القدم ليست من أولويات الشاب البرازيلي حيث هناك أشياء أكثر أهمية في نظره الآن، كسباق السيارات، والبورصة والأسهم، وألعاب الهاتف، ومواعدة الفتيات.

ونتيجة هذا التغير الملحوظ هو تدهور حال كرة القدم في دولة معروفة بأنها تتنفس كرةً، وتصدر للعالم لاعبين أفذاذًا أبهرونا بمهاراتهم الفتَّاكة، وبالتالي فإن الهزيمة المُذلة التي نالها المنتخب البرازيلي على يد المنتخب الألماني، لم تكن سوى نتيجة منطقية وطبيعية، وفقًا للتطور الأيدولوجي الناتج عن التغير الاقتصادي للمواطن البرازيلي الذي أصبح يملك الرفاهية التي تُغنيه

عن الركض حافيًا فوق أرضية الملاعب الشعبية وشواطئ البرازيل، لدرجة أنه قبيل إقامة كأس العالم في البرازيل عام 2014، قام الشعب البرازيلي بمظاهرات مناهضة ترفض إقامة هذا الحدث العالمي على أراضيها.

هذا ما نجنيه إن وضعنا المال في موضع الغاية لا الوسيلة التي تساعدنا على تحقيق غاياتنا في هذه الدنيا، هذا ما نجنيه حين نضع المال في المكانة التي لا يستحقها، ولا خلاف على أهمية المال لكن في غياب الموهبة والطموح والمنطق فإنه من الحماقة أن ننتظر سعادة أو نجاحًا؛ فأن تكون ثريًّا تجلس مع أثرياء مثلك، تتحدث بتباهٍ عن جولاتك في اليونان، وعن شرائك كمية كبيرة من البجع اليوناني الظريف لهو بالأمر الرائع، لكن هل يمكن للمال أن يكون جديرًا في اعتباره أمنية فتقوم بتفضيلها عن نعمة مثل الصحة!

الإجابة عن هذا السؤال الصعب تدفعني مضطرًا إلى الحديث عن الأمنية التي من المحتمل أنها قتلت صاحبها؛ الأمر على طراز بيت من الشِعر ألقاه المتنبي في ذروة مجده ولم يدرك في خاطره أن هذا البيت قد يكون سبب مقتله في يوم من الأيام.

أنور وجدي الفنان العظيم الراحل الذي كان يُعد في عصره فارس أحلام العديد من الفتيات، وهذا يتضح من أدواره الرائعة في الأفلام العربية القديمة، تلك الأدوار الجميلة التي كانت تجمعه بعصفورة السينما والطفلة الشقية فيروز.

تبدأ قصة الفنان الراحل مع المال وقت حلوله ضيفًا في لقاءٍ تليفزيوني قديم، تسأل المذيعة نجم السينما أنور وجدي عدة أسئلة عن تاريخه الفني وتطلعاته في الأعمال السينمائية القادمة، من بين تلك الأسئلة يأتي سؤال يعتاد مقدم البرنامج توجيهه إلى ضيف الحلقة، سؤال يتعلق بأماني وأحلام الفنان سواء فنية أو حياتية تخص كل جوانب معيشته، ماذا يتمنى الفنان أنور وجدي في هذا الوقت؟

وبعد تفكير استغرق دقائق معدودة، ثم ببعض التنهيدات قال إن أمنيتي التي أرجوها من الله أن أكون ثريًّا، أملك مبلغًا من المال لا يقل عن نصف مليون جنيه، لا أريد أكثر من ذلك، وسوف أكون في قمة سعادتي إن تحققت هذه الأمنية، لا سيما أن نصف مليون جنيه في هذا العصر بمثابة المليارات في عصرنا الحالي، وقت أن كان الجنيه المصري يملك عضلات ضخمة وبارزة.

ولقد كان أنور وجدي مَرِنًا في عرضه للغاية، قال مضيفًا إنني مستعد أن أفقد صحتي مقابل هذه الثروة.

هكذا عرض الفنان الراحل صفقته المغرية الصحة مقابل نصف مليون جنيه، ولأن الإنسان يظن الأمر هينًا، وهو عند الله عظيم لدرجة لا يستوعبها عقله المحدود، كان للفنان أنور وجدي ما تمناه في يوم من الأيام، بل أعطاه الله أكثر مما تمنى، حتى قيل إن ثروته بلغت في هذا الوقت ما يزيد عن نصف مليون جنيه.

وتدور عجلة الزمن وتجري الأيام والسنوات، حتى جاءت ليلة تليفزيونية على إحدى القنوات، ترحب بضيفها الفنان أنور وجدي، فيسأله مقدم البرنامج عن أحلامه وطموحاته الفنية والشخصية، فكانت إجابة الفنان الراحل بسيطة وضئيلة مقابل أمنيته في السابق.

كانت أمنية أنور وجدي تتلخص في موافقة الطبيب المتابع لحالته الصحية تناول كسرة خبز وملعقة من الفول!

هكذا لخص الفنان أنور وجدي أمنيته في هذه الحياة، بالرغم من ثروته المادية القادرة على شراء المصانع المنتجة للفول، لقد أصيب بمرض خبيث عجز الطب في تحديده ووصفه، مما كان سببًا في حرمانه التمتع من ثروته الطائلة.

الغريب في ذلك أنك قد تجد أحد أصدقائك المكتئبين الذي يعتاد ابتلاع أطنان من الفول كل صباح ثم يقوم بفتح صفحته الشخصية يتساءل بحزن دفين لم يحدث كل هذا معي! بالطبع لو أني مكانك سأجيبه في التعليقات أسفل حديثه لا تيأس يا بقرة الفول، لعل الله يريدك أقوى!

إن أقسى شعور قد يؤلم الإنسان هي تلك الساعة التي يقوم فيها بدفع ضريبة مقابل نعمة لم يتوقع خسارتها في ساعة من الساعات، فالأسد في تعريفه التصوري هو الذي يمتلك مخالب كبيرة وطويلة وأنياب حادة قاطعة، مما يجعله الأقوى دائمًا في نظر حيوانات الغابة وفي نظر الإنسان كذلك.

لذا لو نزعنا من الأسد مخالبه وأنيابه، فلن نجد فرقًا بينه وبين "الفار الطباخ"، بل يصبح هذا الفأر الصغير أفضل منه كثيرًا في هذا الوضع بسبب موهبته الرائعة في طهي الطعام خصوصًا وجبة الخلطبيطة بالصلصة الرهيبة التي أبهرت الصحفي الشرس ذا الوجه المكتئب "أنطوان إيجو".

وتعتبر هذه الوجبة الشهية سببًا أساسيًا في صنع صداقة حميمة بينه وبين الفار الطباخ وصديقه الفاشل دومًا لينجويني، لا سيما أن الخلطبيطة بالصلصة دفعته إلى استرجاع ذكرياته الجميلة مع أمه بمجرد أن تذوق أول ملعقة من هذه الوجبة الساحرة، ويمكنك سماع مقالته الرائعة التي كتبها في مدحه لمطعم جوستو حينما حل ضيفًا مرعبًا في ليلة من ليالي باريس الممتعة!

تخيل أن تكون ثريًا تملك الجاه والنفوذ والسلطة، وبرغم ذلك تعلم تمام العلم أن الموت يتأهب لالتهامك بمجرد تناول ملعقة ولو صغيرة من وجبة الخلطبيطة بالصلصة!

بكل تأكيد يصبح الإحساس وقتها قاسيًا مؤلمًا، وتصحو على واقعٍ مرير تتمنى فيه العودة فقيرًا معدمًا تستشعر الحرية والسعادة والصحة، بدلا من أن تكون عبدًا مملوكًا لبعض النقود والذهب البالي.

ربما المال يمنحك الكثير، لكنه مقابل ذلك قد ينزع منك أهم الأشياء وأجملها!

البقر من الناس

في يوم ما ذهبت بصحبة عائلتي لزيارة أقارب لنا يقيمون في قرية زراعية بمحافظة الشرقية، وفي الحقيقة كان استقبالهم حافلًا يعكس مدى كرم أهل الشرقية المعروف؛ كل شيء يوحي أنك مرحب بك هنا، الوجوه البشوشة، والعيون ذات الحفاوة اللامعة، كلمات الترحيب الرنانة مرورًا بالغداء الشهي والدجاج المشوي الذي التهمته عن بكرة أبيه غير مبالٍ بنظرات أمي الحادة التي نعرفها جميعًا في مثل هذه الظروف.

وبعد الوليمة الرائعة والتهامي بعدها جميع أنواع الحلوى التي قُدمت على شرف الزيارة انقسمت الجلسة إلى قسمين، جلسة للكبار وجلسة للشباب، ولأني في الواقع لا يمكنني تحديد أي نوع من الجلستين يناسبني، فلست ببالغ في العمر لدرجة أن أنضم إلى جلسة الكبار كوني لا أستطيع تذكر كيف كانت الشوارع في مصر أنيقة ونظيفة وكيف كان الأولاد مهذبين في الأربعينيات وهذا يتضح من معاكستهم للفتيات التي كانت في قمة الأدب وعدم خروجها نهائيًّا عن النص، ولا أعرف لم كان أكثر ما يجذب الفتاة من الشاب في هذا الوقت لمعان الطربوش الأحمر، بجانب المنديل الأبيض والحذاء الأسود الذي ينطق ببريقه!

ولا يمكنني في أي حال من الأحوال أن أصف شعوري بهدف محمود الخطيب المذهل في منتخب تونس في أواخر السبعينيات لأني وبكل بساطة لم يكن يوم مولدي قد حل بعد، ذلك اليوم الأمشيري الأغبر الذي صادفته

وقوع الزلازل والبراكين أقصى جنوب اليابان، واندثرت على إثرها قرى بسكانها الأبرياء، لهذا قررت الانضمام إلى جلسة الشباب بالرغم من أن أكبر شخص فيهم يصغرني بسبعة أعوام لكن الأمر سيكون أفضل لي على كل حال.

كانت جلستنا متحركة ونشيطة حيث ظللنا نترجل في الأراضي الخضراء الشاسعة التي تمتلكها عائلتي فهي تعد من العائلات الثرية وصاحبة الأملاك هناك ظللنا نتحدث في كثير من الأمور، رياضية كانت أو سياسية حتى أحاديث الطبخ تطرقنا إليها، ثم كان من المتوقع أن تكون الجلسة مليئة بالهراء والسخف، فظل كل من يحفظ نكتة سخيفة أو بذيئة يلقيها دون اكتراث، لكني لاحظت شيئًا ما، لقد سمعتهم يتحدثون عن شخصية خرافية بعض الشيء، سمعتهم يتحدثون عن عزيزة، وذكاء عزيزة، وأناقة عزيزة، وعيون عزيزة، ونظافة عزيزة، وظلوا يعددون محاسنها وأفعالها التي كثيرًا ما تبهرهم.

من الواضح أن عزيزة تلك فتاة حسناء قادمة من باريس، أظنها فتاة في ريعان شبابها، تنتمي إلى أسرة أرستقراطية رفيعة المستوى، فتاة جذابة فرعاء الطول، نحيفة الجسد تعتاد ارتداء التنانير القصيرة الملونة وفساتين أنيقة كالتي كانت ترتديها لبنى عبد العزيز وشادية وصباح في أفلامهن القديمة، تزين رأسها قبعة وردية مستديرة، تتوسط تلك القبعة زهرة فرنسية رقيقة وهي على ما تبدو فتاة ذات شعر كستنائي ذهبي لامع، وهذا يظهر من خِصال شعرها التي تتدلى من قبعتها الوردية، بالطبع لا أحد يعلم من أصدقائها الفرنسيين

اسمها الحقيقي، ربما يمثل ذلك كارثة بالنسبة إليها، لذا فمن المحتمل أنها تملك اسمًا مستعارًا هناك مثل سيرينا، أو ريهانة، أو ريمون، أو اسم من هذا القبيل، راقية وأنيقة في أفعالها، متزنة ورتيبة في حركاتها، وهذا يُعد أمرًا طبيعيًّا ومنطقيًّا، لقد أخبرتك سابقًا أنها تعيش في باريس عاصمة الموضة والإتيكيت، وليس في باريس البلد، وحين تمشي هذه الفتاة على قدميها تمشي كمشية الوجي الوحل كأن وصف الأعشى يناسبها تمامًا.

إجازة هذه الفتاة من المحتمل أن تكون شهرًا واحدًا تتفقد فيه أفراد عائلتها، وتمتطي حصانًا أبيض قزم ذا أهداب طويلة تزين عينيه، وعلى حافة عنقه شعر بني يحمل بعض شعيرات طويلة تميل إلى الزرقة قليلا، وذيل قصير من الخيوط المنسقة متباينة الألوان ما بين لون بني داكن ولون أحمر قانٍ وكثير من الشعيرات الطويلة السوداء يمضي بها وسط الحقول الزاهية بألوانها، وتنبهر بخصال البرسيم الخضراء وهي مصفوفة كجنود تصطف لحرب وشيكة، بالإضافة إلى القطط والأبقار التي تختلف عما تراهم هناك في باريس من حيث النظافة والحجم وغيرها من الأشياء التي تجعلك كرجل مصري أصيل تشفق على هؤلاء سيئي الحظ الذين أوقعهم القدر أن يعيشوا في بلد مثل باريس، ثم هي أيام وتغادر تستكمل دراستها، ولا شك في أنها تتقن اللهجة الفرنسية بجانب بعض اللغات الأخرى كالإيطالية والإنجليزية.

هذا تخميني بناء على حديثهم الذي أرجو من الله أن يكون حقيقة وليس مجرد خيال روائي عقيم كعادتي ولكي لا يقتلني الفضول سألتهم بوجه يرتسم اللامبالاة.

من عزيزة التي تتحدثون عنها؟

أجاب أصغر أبناء عمي مسرعًا قائلًا بشغف كبير: تعالَ أريك إياها.

أظنه بشغفه هذا لو أني سألته عن مقبرة فرعونية وليس عن عزيزة لقال لي أيضًا بالشغف نفسه تعال أريك إياها!

فمالَ بنا نحو مزرعة صغيرة مليئة بالأبقار، أدركت على الفور أن عزيزة تلك ستكون بقرة بالتأكيد، وحلم ارتباطي بفتاة بيضاء ذات شعر كستنائي ذهبي لامع تنتمي إلى أسرة أرستقراطية وتتقن اللكنة الفرنسية، والتسكع برفقتها في شوارع باريس الساحرة قد صارت أضغاث أحلام سرعان ما تبخرت في الهواء.

غير أني وجدت عزيزة رغم كونها بقرة إلا أنها تستحق الأوصاف التي قيلت في حقها بالفعل، بقرة نظيفة جدًّا، ذات عيون مذهلة تشعر أن بداخلها عالمًا آخر، صفيحة وجهها توحي بالسعادة بمجرد النظر إليها، سوداء فاقع لونها تسُر الناظرين!

وما زاد انبهاري بها هو تصرفاتها التي تشبه إلى حد كبير تصرفات وأفعال الإنسان حيث يبدو أنها مُدربة بطريقة متقنة وقد زادت دهشتي كثيرًا حينما

شاهدت قدرتها على النطق بكلمات قليلة بطريقة طفل صغير ما زال يُحرِّف الكلمات.

في ذلك الوقت تأملت بدقة هذه الظاهرة الغريبة! وتساءلت في نفسي ماذا ينقص هذه البقرة كي تكون مثل الإنسان!

ثمة شيء ينقص المعادلة حتى تصبح هذه البقرة الجميلة مثلنا تمامًا، ظللت أعدد أطراف المعادلة بحثًا عن الطرف المفقود الذي بغيابه أصبحت عزيزة بقرة وليست إنسانًا حتى استخرجته في نهاية البحث، إنه العقل، الآن أستطيع أن أصف ذلك الإحساس الرائع لحظة سقوط التفاحة على رأس نيوتن التي على إثر سقوطها ظل يجوب شوارع لندن صائحًا، وجدتها وجدتها!

إذن فلنعد ثانية إلى حديثنا أنت تقول إن العقل هو ما يميز الإنسان عن الأبقار وغيره من المخلوقات، ويجعل صاحبه يفكر، ويناقش ويخرج بنتيجة منطقية تساعده على تأدية الأمانة التي كلفه بها الله سبحانه وتعالى عكس هذه البقرة التي لا تعرف غير الطعام والدوران حول الساقية وتقليد الإنسان في بعض الحركات والأفعال.

دعنا الآن من عزيزة لنتركها تكمل طعامها، ولتخبرني إذن أين عقل صديقك الملحد الذي يقسم بالله أن الملكة اليزابيث أرسلت إليه طلب صداقة! دعك من أنه كاذب، فعلى حد علمي أن الملكة اليزابيث لا تملك هاتفًا من الأساس، امرأة تملك كل ما في المملكة، المحيطات بما فيها من بجع وأسماك

ودلافين وشوارع بمنازلها، صدقني هي لا تحتاج إلى هاتف ولكن المشكلة في قصة صديقك الملحد أنه أقسم بالله، تخيل معي مُلحدًا يقسم بالله!

لذلك فمن أهم الأسباب التي خلق الله من أجلها الأنعام أمثال الحمير والأبقار وغيرها هي أن نضرب بها الأمثال في هؤلاء، ثم حدثني عن قوم موسى الذي لا أجد اختلافًا بينهم وبين هذه البقرة الجميلة وقت أن أخبرهم النبي موسى إذا أردتم معرفة القاتل "فإن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة"، ولو أراد الله بقرة بعينها لقال لهم اذبحوا البقرة، لكن بلطف منه ورحمة أزال لهم حروف التعريف لتصبح بقرة، إذن هي بقرة، مجرد بقرة تكليف غير معقد بالمرة!

فكان ردهم الذي يتناسب تمامًا مع عقلهم الفارغ والمتدني "إن البقرة تشابه علينا"!

لا أعلم لماذا حين أقرأ هذه الآية، يأخذني الاعتقاد أن الله يُشبه قوم موسى بالأبقار، ربما يكون ذلك أحد التفسيرات الصحيحة التي سيكتشفها العلماء مستقبلًا، فالقرآن دائمًا يحمل في بطون كلماته معجزات لا يمكن لعقلنا البشري المحدود إدراكها واحتواؤها.

وإن كنت تظن أن معلوماتك العامة قوية لدرجة يمكنك بها منازلتي، وترى أن قوم إبراهيم عليه السلام عاقبوه لمجرد تحطيمه التماثيل التي يركعون لها والإبقاء على كبيرهم قائلًا "بل فعله كبيرهم هذا"؟ أظنك واهمًا في

ذلك، إن المشكلة عند هؤلاء تكمن في قوله لهم "أفلا تعقلون" أي أنكم مجموعة من الأبقار منزوعة الفهم، فاقدة للعنصر الأهم في المعادلة البشرية وهو العقل، كل ما في الأمر يا صديقي أن النبي إبراهيم عليه السلام ضرب قومه في مقتل، لقد أصاب العقل فشعروا بالإهانة الكبرى، فما كان لهم أن يستروا أنفسهم إلا بذلك العقاب الذي كان بالنسبة إليهم ورقة التوت الأخيرة التي تحصنهم من المقارنة الظالمة مع البقرة عزيزة صاحبة العينين الرائعتين.

وماذا ترى في رجل عجوز، بياض شعره يكاد يطغى على سواد رأسه، وتجاعيد الشيخوخة، ويديه المرتعشتين اللتين تعلنان وجوده في أرذل العمر، تراه يقف خلف قضبان السجن، راسمًا علامات الندم المصطنعة ودموع التماسيح المزيفة، والتهمة التي زجَّت به سجينًا خلف هذه القضبان الحديد هي اغتصاب طفلة رضيعة!

لقد افترس هذا البغل جسد طفلة لم تنضج أعضاؤها التناسلية بعد! أخبرني الآن عن وضعية مقارنته بالبقرة كيف تبدو، هل تجدها مقارنة منصفة وعادلة!

وحين أعلن الرئيس الأمريكي جورج بوش اعتذاره من الشعب العراقي عن سحقه وتدميره للبلاد وقيامه بطمس معالم العراق التاريخية، ودون أن ينظر إلى دموع الثكالى التي لم تجف، والمنازل التي صارت تعِج بالموتى، والمقطعة

أوصالهم، خطيئة عظمى يدفع الشعب العراقي ثمنها الآن فماذا بعد رحيل الوطن يا أخي العزيز، أتظن أن هناك مصيبة أعظم وأهول من ذلك!

ليعلن الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن بين أنقاض التاريخ المنجرفة وأمام أمة ممزقة أشلاؤها، في مؤتمر الحذاء الشهير موجهًا حديثه للشعب العراقي العريق والطيب، الذي سيتقبل فعلته على الرحب والسعة، معلنًا أسفه الشديد عن تلك الحرب ويرجو من العراقيين نسيانها تمامًا ومحوها من ذاكرتهم، آملًا أن تكون ذاكرة الشعب العراقي مثل ذاكرة السمك.

هكذا يكون الأمر بكل بساطة، نسيان مصيبة عظيمة مثل تدمير الوطن!

وماذا عن متطرف يرتدي عباءة الدين ويسيل الدماء بيده القذرة ويقتل الأبرياء دون ذنب اقترفوه، واليد الأخرى تراها ممسكة بكتاب الله، إنه نوعية خاصة من الأبقار التي تتفنن في تحريف الكلم عن مواضعه، متخذين الجهل منهجًا والظلام طريقًا.

وهل سمعت في زمن من الأزمان خبرًا عاجلًا يقول إن هناك ثورًا ضخمًا اغتصب بقرة صغيرة وبعد أن انتهى منها سحقها بأقدامه القوية! لكنك ربما سمعت بالتأكيد عن خمسمئة ضبع قذر خسيس، لا يمكنني وصفهم بالذئاب إطلاقًا، فالذئب مهما بلغت شراسته يظل صاحب شرف وكرامة، هل رأيت يومًا من الأيام ذئبًا يؤدي نمرة طريفة في سيرك إرضاء لحفنة من الجماهير!

كما أني لا يمكنني وصفهم بالبقرة، خصوصًا لو أردت أن أصفهم بالبقرة عزيزة أو حتى أي بقرة ولو كانت أقل نظافة وجمالًا من عزيزة، لا يستوي الأمر البتة ولا يمكن أن يحدث، وسوف تصبح المقارنة هنا من وحي الخيال، ووصمة عار في حياة البقرة عزيزة وجميع الأبقار.

القصة واقعية ومؤلمة كل الألم، هناك في البوسنة والهرسك حيث النزاع والصراع الداميين بين المسلمين والصرب المتعصبين، وحينما اشتد الصراع المسلح بينهما، كان على الأمم المتحدة التدخل لوقف بحار الدماء التي خلفتها هذه النزاعات، تاركةً وراءها مئات القتلى والأبرياء من الطرفين، لتقرر الأمم المتحدة إرسال قوة حفظ سلام دولية ومحايدة كي تكون حائلًا قويًّا بين الطرفين، وهذا إجراء معتاد لا غبار عليه، فحينما تحِل قوة حفظ السلام الدولية في أي دولة يدِب فيها صراع، بالتأكيد ينتهي ذلك النزاع، وإلا يعتبر الطرف الجاني عدوًّا للعالم، وليس لجبهة واحدة.

وبالفعل ترسل الأمم المتحدة خمسمئة جندي هولندي لتهدئة الوضع بين الطرفين، وهنا دعني أتوقف قليلًا عند هذه النقطة، ففي حقيقة الأمر لا أعلم سبب هذا الاختيار، وعلى أي أساس قامت الأمم المتحدة باختيار جنود هولنديين للقيام بمهمة كبيرة وخطيرة مثل هذه! أي ميزان هذا الذي جعل كفة الجنود الهولنديين تعلو كي يتم اختيارهم لهذه المهمة الدقيقة الحساسة، كان من الأفضل اختيار شركة حراسات خاصة، ولا بأس لو تضمنت بعض النساء؛

ففي كل الأحوال الأمر سيكون أفضل من اختيار جنود هولنديين؛ فأنا لم أسمع أن هناك جيشًا هولنديًّا إلا حينما اجتاح هتلر بحفنة من الجنود الألمان أرض هولندا، فكانت مجرد دولة ضعيفة قام هتلر باجتياحها في ساعة من النهار فقط، ولم يأخذ الأمر وقتًا طويلًا في يد الجيش النازي، أما غير ذلك فعلاقتي بهولندا تتعلق بروعة أبقارهم غزيرة اللبن وكبيرة الحجم، والأداء المميز لفريق أياكس أمستردام خاصة حينما كان يلعب فيه لاعبنا المصري السابق أحمد حسام ميدو، وفينورد الهولندي الذي كان يضم في صفوفه "الكابيتانو" حسام غالي، بجانب أداء المنتخب الهولندي الرائع دومًا في مباريات كأس الأمم الأوروبية، ومبارياته في كأس العالم، واللاعبين الهولنديين العظام أمثال باتريك كوليفرت ودينيس بيركامب وروبن وفان بيرسي والأسطورة كرويف وأسلوب "التيكي تاكا"، والطاحونة الهولندية، هذه حدود معرفتي بهولندا كدولة، أما أن تخبرني أن هناك مقاتلًا هولنديًّا يحمل سلاحًا ثقيلًا ويخوض به حروبًا، وأن تكون جنسيته الحقيقية هولندية، فهذه معلومة جديدة وساخنة مثل خبز جدتي اللذيذ في منزل جدي القديم.

وكالمعتاد وكما هو منصوص في مواد القانون الدولي أنه حينما تحل قوات حفظ السلام التابعة لهيئة الأمم المتحدة، فهذا يعني أنه يلزم على طرفي الصراع المسلح أن يسلم كل منهما الأسلحة لهذه القوات؛ فقامت القوات المسلمة بتسليم أسلحتها بكل سهولة احترامًا للمواثيق الدولية والأعراف بين الدول،

ليأتي الدور على الطرف الصربي لتسليم أسلحتهم، إلا أن هذا لم يحدث، فكان الأمر أشبه بتسليم الخراف إلى مائدة الضباع، حيث لم تحترم القوات الصربية المتطرفة قرار مجلس الأمن، ولم يُسلِّموا أسلحتهم لقوات حفظ السلام الهولندية التابعة للأمم المتحدة.

والغريب في الأمر أن قوات حفظ السلام الهولندية لم تعترض، ولم تطالب الصرب بتسليم أسلحتهم كما فعلت القوات المسلمة.

بالتأكيد يمكنك أن تتوقع ما حدث، مذبحة بكل ما تعني الكلمة من معنى، وأنهار من الدم تفوق جرائم التتار في حق المسلمين، خاصة مذبحتهم في عاصمة الخلافة بغداد، وتحويل نهر الفرات إلى نهر بلون الدم وحبر الكتب، بل لا يوجد وصف أستطيع أن أصف ما فعله هؤلاء المتطرفون في حق المسلمين الأبرياء العزل من السلاح.

لقد قاموا بإبادة عرقية شنيعة وذبحوا جميع المسلمين، ولم يتركوا شيخًا ولا شابًّا مصابًا، قد ذبحوا جميعًا دون رحمة أو شفقة تذكر، كل ذلك تحت أنظار قوات الضباع الهولندية هكذا يكون الوصف أفضل من كونهم جنودًا مسلحين يحملون اسم الجيش الهولندي! فهذه فكرة لا أستطيع ابتلاعها في واقع الأمر. إلا أن هناك بعض الناجين العُزَّل من هذه المذبحة الدامية، وكان أغلبهم من النساء والأطفال الذين لم يجدوا غير مبنى قوات الضباع الهولندية للجوء إليه.

لقد ظن هؤلاء الأبرياء المساكين أنهم اختاروا المكان الصحيح، لكنهم في الحقيقة قد اختاروا وكر النذالة والخسة، فحينما اقترب الناجون من مبنى الأمم المتحدة أملًا منهم أن يكون الملجأ الآمن لهم من أنياب هذه الثيران الهائجة والذئاب المفترسة، هنا كانت المفاجأة، لقد صوب الجنود الهولنديون بنادقهم في وجه اللاجئين المسلمين المفزوعين الذين طلبوا حمايتهم من الصرب السفاحين الذين ينتظرونهم في الخلف.

كان هذا ما حدث، رفض القائد الهولندي حماية هؤلاء الأبرياء المذعورين بل أمر جنوده بإبعادهم عن المعسكر، وتصويب فوهات الأسلحة النارية نحو صدورهم إذا اقتربوا من المبنى، ولم يمض كثير من الوقت حتى هجم عليهم الصرب السفاحون ليقتلوهم جميعًا أمام ناظري القائد الهولندي وجنوده لتصبح أكبر مجزرة وحشية دونها التاريخ في أوراقه بأحرفٍ من دم.

أرى أن ما حدث هو أمر منطقي بالفعل؛ لقد أخبرتك في البداية أنهم مجرد ضباع مفترسة، أما وصف الإنسان فلا يستحقونه نهائيًّا بل هم مجرد ضباع خسيسة ملعونة، فهل رأيت ضبعًا يلهو مع طفل قبل ذلك! ولكنك قد ترى بقرة جميلة تفعل ذلك.

إن الغباء الذي يسكن عقلك أحيانًا عزيزي الإنسان يجعلني أفضل البقرة عزيزة عليك في بعض الأحيان. وهذا يذكرني بقنبلتي هيروشيما وناجازاكي اللتين سحقتا وأبيدتا تمامًا من قبل جيش الولايات المتحدة الأمريكية؛ وقد

فعلت ذلك على سبيل الانتقام مما فعله الجيش الياباني المتهور والمتغطرس، حيث يحكى أنه في يوم من الأيام وبسبب عقوبات فرضتها الولايات المتحدة الأمريكية على اليابان في أشياء معينة كشراء أسلحة وغير ذلك كان الهدف منها وقف طموح اليابان العسكري الذي بلغ ذروته حتى صارت اليابان إمبراطورية عسكرية مسلحة تناطح القوى العسكرية العظمى أمثال الاتحاد السوفييتي وألمانيا النازية والولايات المتحدة الأمريكية. وصار الأمر مقلقًا لنفوذ هذه الدولة الأخيرة بدرجة كبيرة، لترد اليابان على استفزازات الولايات المتحدة بأسلوب ينافي العقل تمامًا أو كما يقولون في الأعراف: حينما أيقظت اليابان وحش أمريكا النائم.

العملية كما أسمتها القوات والمخابرات العسكرية اليابانية عملية "zd" ولو كانت تسمية هذه العملية مسؤوليتي بصفتي قائدًا مهيبًا في جيش الساموراي لكنت اخترت لهم لقبًا أكثر ملاءمة ومناسبًا لحجم هذه العملية الكبيرة، كنت اخترت لهم مثلًا العملية "غباء" بالطبع باللغة اليابانية أو العملية "حماقة" أو أي اسم من هذا القبيل.

وقد انتهت العملية بنجاح وتفوق واضح للجيش الياباني، حيث تم تدمير ميناء بيرل هاربر، وقتل أكثر من 2500 جندي أمريكي، هذا بجانب عدد كبير من المصابين والجرحى لا يقل عددهم تقريبًا عن عدد القتلى، حتى زعموا بكل زهو وفخر أن جزر الهاواي إحدى الولايات التابعة لأمريكا قد

أصبحت عبارة عن كرة من النار.

ولقد كان هذا العمل في عيون اليابانيين عملًا شجاعًا يثبت للعالم هيبة اليابان الكبيرة وطول أذرعها حيث يمكنها ضرب أكبر قوة عالمية عن بُعد، ولكن الأمر في رأي العقلاء الذين يملكون عقولًا تميزهم عن الأبقار كان كارثيًّا، وهو المقدمة لنهاية اليابان، فلقد صارت هذه الحماقة تهدد بمحو اليابان من على سطح الأرض، حيث كانت هذه الضربة اليابانية الناجحة حكًّا لأنف العم سام، واختبارًا حقيقيًّا لهيبة الولايات المتحدة الأمريكية العسكرية؛ ليحدث ما لم تتوقعه اليابان وجيشها العتيد حيث سحق القوات اليابانية وهزمها هزيمة منكرة في الحرب العالمية الثانية، حتى صارت إمبراطورية اليابان بدون جيش يحميها.

وبالرغم من انتصار أمريكا الساحق، لكنها لم تعتبر ذلك كافيًا لاسترجاع هيبتها، وحق جنودها الذين قتلتهم طائرات اليابان في جزر الهاواي، لتحدث الفاجعة الكبرى وكما وصفوها "قُبلة روزفلت الأخيرة"؛ حيث أسقطت طائرات تابعة للجيش الأمريكي قنبلتين سميت الأولى التي أسقطت على مدينة هيروشيما اليابانية "قنبلة الولد الصغير"، ثم لحقتها قنبلة أُسقطت على مدينة ناجازاكي وسميت "قنبلة الرجل البدين"، لتختفي المدينتين من الوجود وتعلن بعدها اليابان الاستسلام التام للجيش الأمريكي دون قيد أو شرط وموافقتها على جميع شروط الجيش الأمريكي، لتدفع اليابان في النهاية ثمن

الحماقة التي ارتكبتها في بادئ الأمر.

وبذلك تنتهي هذه القصة الحزينة التي لو صنعوا منها فيلمًا وسألوني عن اسم مناسب له، لقلت: حين أيقظ الغباء القاتل غباء أمريكا النائم، فما فعلته اليابان هو محض غباء خرج من رأس منزوع العقل أدى إلى دمارها وهزيمتها في النهاية، وما صنعته الولايات المتحدة الأمريكية هو أيضًا غباء أشد من سابقه لا تفعله أي بقرة فارغة العقل، فأنت تتحدث عن مئات الآلاف من البشر الأبرياء، وكل الحيوانات الأليفة وغير الأليفة والجنود الذين قتلوا، وليست الأبقار فقط، وإن كان حتى قتل الأبقار بهذا الشكل لا يرضي أي أحد منحه الله عقلًا في رأسه، وقلبًا في جوفه.

كان من الممكن قبل أن تفعل اليابان حماقتها التي انتهى بها الأمر إلى نهايتها أن تسأل أية بقرة من الأبقار الموجودة في كل أنحاء الأرض -تلك المخلوقات التي لا تملك عقلًا- ومع ذلك وبكل تأكيد سوف تخبرهم الأبقار أنهم سيرتكبون خطأ فادحًا، وسيكلفهم هذا الأمر وجودهم ذاته، فما بالك لو سألوا إنسانًا ذا عقل، لا مجرد بقرة لا يمكنها فعل شيء سوى حركات وأفعال تحاكي بها حركات وتصرفات البشر، ففي الكثير من الأحيان توجد مواقف في الحياة ومحطات تقف عندها، تجد نفسك أمام خيارين: إما أن تكون إنسانًا حقيقيًّا، وإما أن تكون بقرة أو أدنى من ذلك.

وإذا أردت معرفة كيف يصير الإنسان الذي منحه الله عقلًا أدنى رتبة من الأبقار، وربما يمكن وضعه في مصاف سلالة الخنازير، هؤلاء الذين سخَّروا عقولهم وبراعتهم الفنية في تدمير العوالم وسحق الأرواح فصاروا يتفننون في صناعة أشكال متعددة من الموت، بدءًا من فوهة نارية، تتوسطها وقفات مكسيكية ينجو فيها الأسرع والأكثر ثباتًا والأقل عرقًا، نهاية بقنابل نووية قادرة على محو العالم من الوجود، ثم أصبحت هناك ملابس مهندمة متخصصة فقط للموت وخوذات تقي الأعين وفوهات بنادق القناصين المترصدة كالنسور، وإذا أردت دليلًا على صدق كلامي الذي يثبت أن البقرة في بعض الأوقات قد تعلو مرتبة على الإنسان، أفسح المجال لي لأخبرك عن أقذر خنزير يمكن أن تصادفه على وجه الأرض؛ لدرجة أن وصفه بإنسان يعتبر عارًا شديدًا على البشرية جميعًا، "جفري إهرست" القائد البريطاني الذي قام بأبشع جريمة يمكنك أن تتخيلها، وأعتقد أن البقرة عزيزة لو علمت بهذه القصة ستحمد الله عز وجل وتسجد له شكرًا أنها بقرة وليست إنسانًا، فالأمر سيكون محرجًا لها للغاية، وستتمنى حينها أن تتحول إلى مجرد بقرة عادية، ولن يبلغ حلمها أكثر من ذلك، أما كونها بقرة لطيفة أنيقة مثل عزيزة فهذا فضل لا تطمع فيه مطلقًا.

دعني أسرد لك القصة البائسة بإيجاز سريع، لقد حدث في أحد الأيام السوداء على البشرية، وبخاصة على قبائل الهنود الحُمر البائسة، أن لبس أحد الخنازير رداء البشر، وتنكر الأخطبوط في قاع المحيط بشكل إنسان، وذهب إلى هؤلاء الهنود البؤساء أصحاب الأرض وهو أعزل دون سلاح، وبما أن الهنود طيبون مسالمون، وجدوا أمامهم مشهدًا غير مألوف لهم، ولم ترض أخلاقهم الكريمة إطلاق النار من بعيد على إنسان أعزل، فسمحوا باستقباله، فوجدوه يحمل معه الهدايا والتحف الثمينة، وملابس تغطي أجسادهم العارية، وبطاطين تدفئهم في الليالي الباردة حالكة السواد، ليس ذلك فحسب، بل حمل معه ذهبًا وهدايا أخرى.

لقد جاءهم مبتسمًا، بشوش الوجه، يحمل تلك الهدايا في يد، وغصن الزيتون والورود في اليد الأخرى، فماذا تنتظر من قبائل ساذجة تحكمها الفطرة، يقبل عليها هذا الخنزير بتلك الهدايا الثمينة، التي تقيهم البرد، وتستر أجسادهم العارية.

لقد ظن هؤلاء البؤساء أن هذا الخنزير الذي جاء إليهم على هيئة الرجال، أنه رجل بالفعل، رجل يختلف عن غيره من المستعمرين حاملي البارود والسلاح، ظنوا ببراءتهم الساذجة أنه إنسان لا خنزير، ولا مصاص دماء بأنياب حادة كبقية جنوده وجنسه الذين لا يتركون في أجساد الهنود نقطة من الدماء إلا واعتصروها.

لقد اعتقد الهنود البؤساء الكثير والكثير من هذا الخنزير البشري، وبطيب قلوبهم، وصفاء نياتهم، استقبلوه بحفاوة بالغة، وحملوه على أعناقهم مهللين، وأقاموا له حفلًا صاخبًا، وظلوا يهتفون باسمه طيلة اليوم، وهو يعدهم ويطمئنهم بأن لا توجد قوة في هذا العالم لها الحق في سلب أرضهم وموطنهم.

وقبل أن يرحل وزع عليهم هداياه من الطعام والبطاطين، فأخذوها بكل فرح وسعادة وبكل ما تستطيع أن تعبر به عن معاني الراحة والسرور والأمل في المستقبل السعيد من كلمات.

ثم كانت المفاجأة المؤلمة والقاتلة لهم بعد رحيله، وهي أن تلك الهدايا اللعينة تحمل في داخلها بكتيريا حاملة لمرض الجدري مما نتج عن ذلك مقتل أكثر من 15 مليون هندي، وتعتبر هذه المذبحة أول حرب بيلوجية في التاريخ كان بطلها رجلًا واحدًا لا جيشًا جرارًا كبير العدد، مدججًا بجميع الأسلحة المشروعة وغير المشروعة، ولماذا كل هذا الجيش إذا كان يكفي فقط أن تأتي ببعض البطاطين وزهرة جميلة وورقة زيتون خضراء تزين جيبك العلوي وبعض الهدايا رخيصة الثمن، ووعود السلام المزيفة، لتبيد الملايين من البشر في غمضة عين.

المشكلة هنا ليست في هذه الكارثة العظمى التي كان ضحاياها بالملايين، ذلك أمر مألوف اعتدناه من أصحاب القبعات الكبيرة والوجوه الحمراء، الذين ظنوا أنهم السلالة المختارة في هذا الكون السحيق، ولكن المشكلة

الحقيقية تكمن حينما سئل هذا المجرم عن سبب فعلته هذه، ولماذا لا يفعل ذلك في عدو بلاده اللدود، الذي كان حينها ممثلا في دولة فرنسا؟

أجاب الرجل بكل سخرية وتهكم "إن فرنسا عدو يستحق الاحترام، لا يمكنني فعل ذلك معها، فمهما كان عدوك شرسًا ولا يرحم لكن عليك أن تظهر احترامك ناحيته."!

بالطبع لم يظهر الرجل أي تعاطف أو ندم على ما فعله بالهنود الأبرياء ولا القتلى الذين أبادهم بالملايين بل كان الرجل أكثر تماسكًا، ولم يظهر عليه أي ذرة من التعاطف أو الندم، حتى لو كان ندمًا خفيفًا تلحظه بين ثنايا حديثه، بل قال الرجل بكل فخر يعتريه الكبرياء "إن هؤلاء الرعاع ليسوا بالعدو الجدير بالاحترام، إنهم عبارة عن أوغاد لا يستحقون الحياة مطلقًا، لقد صنعت معروفًا للبشرية بأنني نظفت الأرض من هؤلاء الأقذار، كم ستكون البشرية على مر التاريخ وبعد موتي مُدانة لي بالكثير، لقد نظفت حظائر الأرض من هذه الحيوانات العفنة والقذرة".

لتنتهي القصة على ذلك التي تخبرنا بين سطورها عبرة واحدة وهي أن العقل الذي منحك الله إياه قد يكون بلاء لا نعمة، حجة عليك لا ميزة، فلا نستطيع حينها أن نفرق بينك وبين البقرة، فقد نظلم الأبقار إذ نضعها في مقارنة ظالمة بحقها في بعض الأوقات مع بعض البشر، خصوصًا أن هناك في عالم غير موازٍ لعالمنا، بل في قلب ذلك العالم الذي نعيش فيه نجد أن البقرة

تملك مكانة تفوق مكانتنا نحن البشر الذين ولدوا من صلب آدم.

على سبيل المثال، ففي في دولة نووية عملاقة كدولة الهند نرى الملايين من البشر يتخذون البقرة إلهًا، ويقيمون على شرفها الاحتفالات والأعياد السنوية، ويلبسونها الحلي والذهب ويزينونها بأكاليل الفل والياسمين، وأن دين البقرة هو الدين الرسمي للبلاد يشيدون لها القصور ويبنون لها المعابد لتصبح أماكن مقدسة لا يجوز للآثم دخولها، وكذلك الأمر تراه جليًّا إن أخذك حظك السيئ وذهبت إلى بعض الأراضي التي تقطن فيها القبائل المتوحشة في أدغال إفريقيا مثل قبائل الدنكا، الماو ماو، البونجو، وهي رمز مقدس عند قبائل عظيمة مثل قبيلتي الأشانتي والشيلوك، هم يعتقدون أن أرواح أجدادهم الموتى تسكنها وروح الكاهن المقدسة دائمًا ما ترعاها، وأن موت أي كاهن يعني أن روحه قد صعدت إلى السماء ثم تعود على هيئة بقرة مقدسة، علاوة على أنهم يعتقدون أن البقرة ما تأتي لهم بالمطر، وبغضبها تجف مياه القبيلة ولن تعود إلا بذبح العصاة والآثمين الذين تسببوا في غضبها حتى تهطل الأمطار وبرفقتها خيرات لكل سكان القبيلة، وهي الوحيدة القادرة على حمايتهم من سحر الفودو الأسود، وموتها يعني أن اللعنات ستصيب القبيلة بأكملها، وقد يموت صاحبها حسرة بسبب موتها، ليظفر بالشرف الأكبر حيث تدفنه القبيلة بجانب بقرته المتوفاة، وأن تقطع شجرة التين المقدسة عند جماعة الجيكويا خير لك من أن تمس أبقارهم بسوء، نهايتك ستكون أسرع مما تتخيل أعدك بذلك.

أما وإن كنت محظوظًا كونك مواطنًا هولنديًا فلن أصطنع الدهشة إذا أخبرتني أن هناك بقرة ما هي إلا أحد أفراد عائلتك!

الشيء اللافت للنظر، والغريب في ذلك عزيزي القارئ، وهو ما يدعو إلى الصدمة والدهشة أن كل ذلك يحدث، والبقرة لا تعلم عنه شيئًا، فهي بدون عقل، أنت أخبرتني بهذا أليس كذلك!

كما تدين تدان

بالطبع حينما تقرأ عنوان هذا الموضوع وللوهلة الأولى ربما تظن أنني سوف أتحدث هنا عن الخيانة الزوجية، وقد تنتظر مني أن أحكي لك قصة رجل يعتاد خيانة زوجته مع عديدٍ من النساء، ليكون اليوم على موعد مع ليلة مميزة تجمعه بفتاة ليل استدعى جمالها غرائزه وشهوته.

أما زوجته المسكينة فلا يراها إلا حين تُعِد له الشاي قبل ذهابه إلى العمل بفترة وجيزة، بجانب بعض الجلسات العائلية التي قلما يحضرها.

وفي اللحظة التي تجتاح النشوة الزوج الخائن، يبدو أن السقا قد لفت انتباه زوجته داخل منزله، حيث أبهرها السقا بقوته ووسامته الفائقة، فأوقعته الزوجة في حبالها، ودفعته إلى إقامة علاقة جنسية في نفس ذات الوقت الذي يقيم الزوج الخائن علاقته مع فتاة الليل.

وبموسيقا تراجيدية عاطسة في ذهن الزوج، مصحوبة بلهجةٍ غليظة مطعونة بوخزة نافذة "دقة بدقة، إذا زدت زاد السقا"، وعلى إثر هذا الصوت يزم الزوج الخائن نفسه تاركًا فتاة الليل، وظل يركض ركضًا تائهًا صوب منزله ثم اقتحم حجرة زوجته بغتةً فصعقته الصدمة من هولِ المشهد، لقد وجد السقا معتليًا زوجته عاريين تمامًا.

وما إن فوجئ بهذا المشهد المفجع، حتى أسرع بنزع مسدس صمويل كولت العريق من جيبه قائلًا بغلظةٍ حانقة ومكتنزة: زوجتي الحبيبة تفعل ذلك، أيها الكلب كيف تجرؤ! من سوء حظكما أنني لست بمزاج جيد لتوزيع

الرحمات، لأن الرحمة لأمثالكما لن تلد غير المشكلات، لا رحمة لكما عندي.

ولعلكما لا تعرفان مدى عراقة هذا المسدس وقيمته، رأساكما القذران سيدركان الآن قيمته جيدًا، فقام بإطلاق رصاصاته الغاضبة ساحقًا رأسيهما!

وقد أخبرك عن صديق خسيس يواعد أخت صديقه المقرب، الذي وعدها بالزواج وذلك بعد أن أوقع بها وصار في أحشائها طفلًا منه، كل ذلك حدث قبل أن يكتشف الصديق الخسيس أن أخته تزوجت من الصديق نفسه زواجًا عرفيًا، وقد اضطرت الفتاة للاعتراف لأسرتها بهذا السر خاصة بعد أن ظهر عليها جميع أعراض الحمل المعروفة التي أخبرتنا بها المسلسلات والأفلام المصرية.

في الحقيقة تلك القصص الشيقة والمثيرة قد تكسبني شهرة واسعة، لا سيما أنني لو قررت وصف هذه المشاهد الحميمة بحذافيرها، وبالمناسبة هذه مهارة أعترف إجادتها لغويًا، فإذا كنت تنتظر أني سأقص عليك كل ذلك السخف؛ فإني أعتذر إليك، لقد قصدت العنوان الخطأ يا صديقي، ويمكنك أن تجد ما تريده في كتبٍ أخرى لأنك بكل صراحةٍ وفخر لن ترى ذلك عندي بتاتًا.

أنا أتحدث هنا عن أمورٍ جوهرية وروحية بعض الشيء، لم تفهمني بعد، حسنًا سأشرح لك ببساطة كي لا يلتبس عليك الأمر.

إن لكل منا في ذاكرته مواقف أبقاها الماضي في داخله ونسيج ذكرياته، وبالرغم من أنها صارت في طي النسيان وسحقتها عجلة الزمن، التي لا يستطيع إبليس نفسه الوقوف أمامها، لكنك تجد في طياتها مكنونات باقية فيك، معلقة بك كتلك السلسلة الأنيقة التي تزين رقبتك.

لقد تداخلت هذه الذكريات، في جيناتك وتكوينك دون أن تعلم، ثم سرعان ما تكتشف بعد ذلك أن تلك المكنونات ما هي إلا دين ثقيل عليك أن تدفعه في الحال، لتجد نفسك تلقائيًّا تصنع أشياء وتأخذ قرارات ربما يكون منها المصيرية في حياتك، وقد كنت تنبذها في الماضي.

مشاعر وقرارات وأفعال أكلها الزمن وابتلعها، لكنها قادرة على صُنع تفاصيلك، قادرة على تحديد ثقافتك وأخلاقك ومدى اتساع دائرة الوعي بعقلك ونظرتك للحياة كيف تبدو، كيف ستتعامل مع لحظات الحزن ولحظات الفرح.

أشياء تظن أنك لم تلقِ لها بالًا في الماضي، ثم تكتشف أنها راسخة في ذهنك، في طرفٍ من أطراف عقلك، وتأتي لحظة ما تتداعى أمامك على هيئة حبال تقيد جسدك من القدم إلى الرأس تتذكر حينها كل شيء.

ولكي يزول ذلك القيد ستكون ملزمًا بدفع الثمن الذي بالطبع لن يكون صعبًا وفي الوقت نفسه لن يكون سهلًا تمامًا.

ما أقصده في هذا الموضوع بالتحديد أنه قد يأتي يوم فتدرك أن التصرف الذي فعله جدك بخصوص شأن ما في الماضي واتهامك حينها له أنه دقة قديمة فانتقدت عمامته الواسعة التي عليه أن يجعلها في مقاس الزمن الذي تقدم حتى أصبحنا في القرن الحادي والعشرين، لا بدَّ لجدي العزيز أن يغير طريقة تفكيره الرجعية تلك، قد فعلته نفسك وبتلقائية عجيبة وقناعة تامة، ترتكب الفعل نفسه الذي صنعه جدك واتهمته وقتها بالرجعية والتأخر، لتسأل نفسك تُرى ما الذي حدث!

صفعة أبيك على وجهك لخطأ ما قد فعلته، وكم كنت غاضبًا منه وقتها وكانت سببًا في ابتعادك عن البيت أيامًا مُعزيًا نفسك "إن فعلتي لا تستحق هذه الصفعة، لقد ظلمني أبي بكل تأكيد!"، ثم ها أنت الآن أب، وقد صفعت ابنك للفعلة نفسها التي قمت بها في الماضي، بل وترى أن عقابك لابنك مستحق تمامًا، ولا يحِق له أن يغضب أو يهجر البيت بسبب هذه الصفعة.

الخير الذي صنعه والدك الراحل، وكنت ترى أنك أحق به في شراء دراجةٍ جميلة، ثم تمُر الأيام وتكتشف أنك أعطيت فقيرًا آخر نقود في جيبك، لتتداعى في قلبك صرخات تفتك بجوارحك!

ليتك تعود يا أبي، ليتك تعود ولو يومًا واحدًا، أنا ابنك الضال، أنا المخطئ دائمًا وأنت الصواب، هؤلاء الرجال لم يُخالط البياض سواد رؤوسهم من فراغ، إنها خبرة الحياة وسنوات حملوا فيها من الحزن والألم والفرح

والغضب والصدمات والشقاء، ما يجعلهم فلاسفة قادرين على كتابة المؤلفات وتوقع الأحداث.

فالخبرة دائمًا ما تقول إن الزمن فقير مُعدم، لا يملك الجديد يخبرك به، الخبرة هي السلاح الذي لا يفنى في مواجهة شراسة الزمن وفقره، والدليل على ذلك ذكرياتك مع أبيك تجد وكأنها لم تتغير مع أولادك، بل تشَم فيها رائحة أبيك والبيت القديم وحجرته المهيبة.

تحضرني واقعة كنت شخصيًا أحد أبطالها، وقد شاركني في البطولة أحد الأقارب الذي جمعتني به جلسة في منزله وكان يكبرني بعشرين عامًا، الآن يمكنك أن تستنبط عن ماذا كانت تدور الجلسة، وما هو محور موضوعها!

ظل يسرد لي خبراته وقصص البطولات التي خاضها في حياته وأنه لم يكن طفلًا عاديًّا، ولم يعتد مشاهدة أفلام الكرتون مثل بقية الأطفال، بل كان من المولعين بالنشرة الإخبارية وبرنامج العلم والإيمان للدكتور مصطفى محمود، مستدلًا حديثه بمعلومة علمية "إن ضفادع الخشب القابعة في منطقة ألاسكا، تتجمد لسبعة أشهر بشكل كامل، ثم تعود إلى الحياة في الربيع" فهل سمعت عن تلك المعلومة يا بني؟ قلت له نعم لعلها تنتهي حصة الأحياء تلك! ثم تطرق لفترته السمان وحقبة الشباب، وكيف كان شجاعًا وقويًا ثم حكى لي بالتفصيل فترته العظيمة وقت أن كان قائدًا للمريخيين الشجعان،

بجانب المواقف البطولية التي أنهاها بصلادته في معركة حصن كابوتزو وشجاعته التي استحق عليها وسام البطولة.

والغريب في ذلك أنني حينما طلبت منه رؤية الوسام تلعثم لسانه وأخبرني مؤسفًا أنه قد فقده في حرب أكتوبر المجيدة!

ثم سرعان ما حكى لي واقعةً طريفة حدثت له مع والده، ففي يوم من الأيام كان يجلس بجانب أبيه، دخل عليهما أحد أصدقاء والده وأبلغه أنه شاهد ابنه هذا يدخن السجائر خلسةً خلف المبنى المهجور للمدرسة القديمة، وبالطبع كان الرجل ينتظر من صديقه بعد سماعه هذا الخبر الصاعق أن يقوم بضرب ابنه العابث ضربًا مبرحًا، لكن المفاجأة أن أباه لم يفعل ذلك معه بل كان أكثر هدوءًا، حيث اكتفى بابتسامةٍ صامتة تجاه صاحبه، ثم استدار بوجهه ناحية ابنه العاق فوضع يده في جيبه مُشهرًا علبة سجائره، واستخرج سيجارة واحدة أعطاها لابنه أمام ناظري الرجل.

هنا أحس الرجل ببردٍ قارص، وشعر أنه مقيد بحبال فوق سفح إحدى جبال الجليد في سيبيريا، لكنه في النهاية استطاع استجماع نفسه منصرفًا في حياء وهدوء، ومن شدة خجله نسي أن يُلقي السلام.

وما إن انتهى من سرد قصته حتى ظل يضحك كثيرًا فاتحًا فاهُ لدرجة أنني رأيت معدته بجانب جزء من كليته اليمنى، ثم قال ساخرًا "الرجل الأحمق كان يظن أن والدي سوف يعاقبني على فعلتي حتى يجعله يخرج من بيتنا

منتصرًا" رحمك الله أبي، كم كنت حكيمًا في تصرفاتك!

وفي خِضم حديثه وضحكاته الصاخبة التي أزعجت السلطعون في بياته الشتوي، سمعنا أحدًا يطرق الباب يستأذن في الدخول فسمح له.

لقد كان أحد الجيران المقربين إليه، قد جاء يقول إنه رأى ليلة البارحة أحد أبنائه يشرب الخمر في الشارع الجانبي برفقة أصدقائه، وحينها توقفت ضحكاته فجأة، ثم غطت على وجهه غيوم حمراء، واحمرت أذناه وعيناه وظهرت ثناياه من شدة الانزعاج حتى أحسست أنها مجرد دقائق ويتحول إلى ذئب عملاق أو مصاص دماء غير رحيم لن يجد صعوبة في التهامي خاصة مع عدم امتلاكي رصاصات فضية تمنحني فرصة للنجاة.

ظل الرجل يعُض على لسانه بشدة، تيقنت عندئذ أن حياة ذلك الابن الضال قاربت على الانتهاء، وصار يلقي السباب ويتوعد ابنه السيئ بكلمات صارمة حادة، وربما يقوم بجلده أو يرسله إلى سجن جوانتنامو في كوبا حتى ينال عقابه الذي يستحق، وهذه بالطبع مهمة -لا يوصي بها الجنود الأمريكان سجون العراق بعد الغزو- تؤكد أن ذلك الولد المنحرف سوف يخرج مهذبًا للغاية!

هنا تذكرت قصته مع أبيه الحكيم الذي رفض عقاب ابنه أمام صديق عمره، وبعد أن استجمعت شجاعتي قمت بتذكيره تلك الواقعة أي عليك الآن دفع دين أبيك القديم وأن تحذو حذوه وتعفو عن الولد، وبمجرد أن

سمع الرجل الغاضب هذه النصيحة مني سألني ممتعضًا وبسخط واضح بعدما احتقنت عيناه بالدم: هل تريد مني أن استدعي ابني وأحضر له زجاجة خمر يحتسي منها كي لا يخرج الرجل من بيتي منتصرًا سعيد! من الواضح أنك فقدت عقلك أو على الأرجح أن بيتي صار يدخله الأوغاد!

قلت له، أنا لم أفقد عقلي، كما أنني لست بوغدٍ مطلقًا، إن أباك هو من فقد عقله لأنه تركك في الماضي دون عقاب.

والغريب في النهاية أن الرجل خضع إلى تجارب الزمن والإرث القديم ولم يعاقب ابنه المخمور، وتلاشت من عقله فكرة الجلد، وسجن جوانتنامو، وعند حلول الصباح دخل على ابنه في حجرته المبعثرة التي تفوح منها رائحة الدخان بأنواعه فأعطاه مبلغًا كبيرًا من المال حتى يتمكن من شراء هاتف متطور باهظ الثمن، وبكل تأكيد أنت تعلم في أي شيء سوف ينفق الولد هذه الأموال!

وهكذا تمضي الحياة كما يقول نجيب محفوظ بالحديقة والناي والغناء، فما تفعله الآن وظننت أنك فرغت منه للأبد، ستجد ما صنعته حاضرًا وكأنك فعلته للتو لكن على يد شخص آخر، ربما يكون ابنك أو ابنتك أو صديقك أو أخاك أو زوجتك، هنا سنرى هل ستتقبله كما فعلته بإرادتك، أم ستمقته حينما ترى غيرك يصنعه!

المسألة ستغدو معقدة، ودائرة الاختيار ستصبح ضيقة للغاية بالرغم من أنك وقتها تملك كل الإرادة، فالأمر كما أخبرتك يضرب في تكوينك وأنسجتك التي شكلتها مكنونات تلك الأحداث.

ولكي أصف لك الموضوع بدقة، وحتى تبدو الفكرة التي أعنيها واضحة سأحكي لك قصة جميلة قرأتها كثيرًا وأظن أن جسدك سوف يقشعر تجاهها، فكثيرًا ما تمنحك القصص الإنسانية المؤثرة إحساسًا فريدًا من نوعه، وكما ترى أني قد فشلت في إقناعك، وهذا بالنسبة إلي أمر مؤسف للغاية.

القصة بطلها شخص يُدعى مستر جونز يمتلك محلًا لبيع الحلوى، رجل عجوز يشبه كثيرًا صورة الرجل الذي يمكث في اللوجو الخاص بكنتاكي إلا أنه أكثر نحافة بعض الشيء.

وقد أخذ مستر جونز شهرة واسعة بين أهل مدينته نظرًا إلى مهارته العالية في مجال صناعة الحلوى.

الأشكال المختلفة للحلوى تثبت قطعيًّا أن مستر جونز ليس ببائع حلوى على الإطلاق، هو نحات بارع من القرون الوسطى، جاء هربًا عبر فجوة زمنية عثر عليها شمال موسكو، وذلك بعد أن بالغ في حجم منخار تمثال يخُص الملك الطاغية إيفان الرابع، فترى حلوى على شكل فارس وفي يده سيف من الشيكولاتة اللذيذة، وسفينة ضخمة من الفانيليا صممها محاكاة لسفينة تايتنك

الغارقة، ورأس مقطوع من السكر بجانبه مقصلة من البسكوت مكسية بالشيكولاتة؛ ثم تتساءل بدهشة كيف أعد هذا العجوز تلك المنشأة الضخمة، بأسوارها المطلية بالشيكولاتة البيضاء!

وبإمكانك رؤية الكأس العملاقة المعبأة عن آخرها بالسكاكر اللذيذة، لتكتشف حينما تلامس أصابعك هذه الكأس أنها عبارة عن كومة متماسكة من جوز الهند.

وعلى المجلى الصغير للمتجر يقبع حصان صغير من السكر مُلقى في جوفه حبيبات البونبون الحار، إضافة إلى بعض الحلوى المختلفة التي أخذت أشكالًا عدة مثل قداحة سجائر، وكتاب وقلم صغير.

أما العلكة فحدث ولا حرج ستشاهدها مصفوفة على هيئة جيش من الأقزام الغارق في الفانيليا، وستبهرك بالتأكيد القلائد الذهبية التي يعلقها مستر جونز على جانبي المحل كونه أحد الجنود الذين شاركوا في الحرب العالمية الثانية وقد حصل على تلك الأوسمة مقابل شجاعته خصوصًا في عملية إنزال النورماندي التي لا يكُف عن ذكرها بالتفصيل لكل زبائن المحل.

أما البطل الثاني فهو ذلك الطفل الذي يحُدِّق بعينيه الصغيرتين من خلف زجاج المحل منبهرًا تجاه قوالب الحلوى اللذيذة والعرائس المتشكلة بكل أنواع الحلوى والشيكولاتة.

بالطبع يعرف الطفل بطولات مستر جونز العسكرية نظرًا إلى أنه دائم الوقوف عند باب المحل، فكان يستمع دومًا إلى حديث مستر جونز المتكرر مع الزبائن عن بطولاته في الحرب العالمية الثانية خاصة عملية إنزال النورماندي، حتى يأتي اليوم الذي استجمع فيه الطفل شجاعته مقتحمًا متجر الحلوى فخرج إليه البائع العجوز قائلًا بابتسامة تزين وجهه الأحمر ماذا تريد يا طفلي الصغير؟ قال له الطفل بنبرة متعالية سوف تعرف الآن، متحسسًا بيديه على جيبه الذي يضع فيه المال مما يجعله يتحدث بغرور واطمئنان.

ومن الواضح أن ذلك الطفل يعرف ماذا يريد من متجر مستر جونز، حيث اتجه فور إنهاء حديثه مع البائع وبخطوات الملوك صوب ركن الحلوى يقوم الطفل بملء صندوقه الذي أحضره معه بجميع أنواع الحلوى وظل يتحرك في جميع أنحاء المتجر ينتقي أفضل أنواع الحلوى وأغلاها ثمنًا في المتجر حتى أرهقت قدماه من كثرة التحرك، وحينما لاحظ مستر جونز ذلك سأله على الفور: هل هذا كل شيء أيها الفارس الصغير؟ قال الطفل: نعم، إن نقودي لن تتحمل أكثر من ذلك.

قال مسترجونز بضحكات لم يتمكن من إخفائها أمام الطفل: من الواضح سيكون لك شأن كبير في المستقبل، قد تصبح محاربًا عظيمًا وبسبب شجاعتك في ميادين القتال يتم تكريمك وتصبح عمدة تلك المدينة التي أقيم

فيها، فأرجو أن تخفف بعض الضرائب التي صارت تثقل كاهلي يا عمدة المدينة في المستقبل.

يجيب الطفل بنشوةٍ بريئة: حسنًا سأفعل ذلك متى اعتليت هذا المنصب، كن مطمئنًا، وأرجو مقابل ذلك أن تمنحني الحلوى مجانًا.

ابتسم مستر جونز قائلا: ذلك أقل واجب أفعله تجاه عمدة مدينتنا الطيب ثم بلَّغ الطفل بثمن الأشياء التي اختارها.

هنا مد الطفل الصغير يده بثقة في جيبه وأخرج نقوده، لكن المفاجأة أنها لم تكن نقودًا، كانت بعض الحبَّات من ثمر الخوخ قائلًا ببراءة الأطفال: هل هذا كافٍ سيدي أو تريد أكثر؟

في تلك اللحظة يجد مستر جونز نفسه أمام أمرين لا ثالث لهما، فإما أن يعصف بتلك البراءة ويطرد ذلك الطفل المتسول ساخطًا في وجهه بسحنة ممتقعة وصوت هازئ تعتريه غبطة: اذهب من هنا أيها القرد ضئيل الحجم قبل أن أحرق وجهك بالنار! وإما أن يختار الأمر الأصعب وهو أن يُقدر براءة الطفل ويضعها صوب عينيه وعقله، وفي حالة اختياره هذا الأمر عليه ألا ينظر تجاه الخسارة المادية الفادحة جراء هذا الاختيار.

التزم مستر جونز الصمت قليلًا، ثم تحركت عيناه تجاه الطفل وبصوت ناعم هادئ مثل صوت الجد الحنون، آخذًا منه ثمرات الخوخ قائلًا: بل هو زائد قليلًا يا عمدة المدينة، بالتأكيد لك نقود باقية.

التف العجوز بظهره بضعة ثوان ناحية الخزينة التي يملكها واستخرج بضعة نقود أعطاها الطفلَ، ومن دون كلمة واحدة أخذ الطفل السعيد النقود مهرولًا خارج المتجر مرددًا تساؤلًا ارتجاليًّا لا تستوعب طفولته معناه "من قال إن الرياح لا تجري كما تشتهي السفن، قد تجري أحيانًا ببعض حبَّات الخوخ!".

وتمر الأيام والأزمنة وينسى الطفل هذا الحادث تمامًا حتى أصبح مستر جونز بأوسمته وبطولاته العسكرية التي كان يحكي عنها لزبائنه دائمًا والحلوى ذات الأشكال المتعددة مجرد مآثر أزالتها أحداث الحاضر.

أما الآن فصار ذلك الطفل شابًّا يافعًا وقد أنهى دراسته الجامعية ثم التحق بعدها بوظيفة صغيرة، وظيفة برغم بساطتها لكنها كانت سببًا في مقابلة فتاة أحلامه التي دخلت قلبه من أول وهلة رآها ينشأ بينهما قصة حب عنيفة وراقية تنتهي بالزواج السعيد، ثم اتفق معها أن يكافحا ويشقا طريقهما معًا كي يصنعا مستقبلهما الذي يحلمان به.

وبعد أن جمعا بعض الأموال قرر الشاب برفقة زوجته إقامة مشروع تجاري يشتركان فيه بالأموال التي استطاعا أن يستجمعاها في أيام عملهما، وهو عبارة عن متجر صغير للهدايا وألعاب الأطفال.

وفي يوم ما لاحظ الشاب أن طفلة صغيرة تعتاد كل يوم الوقوف أمام المتجر الصغير، تحدِّق بعينيها في الألعاب والهدايا؛ فسرح عقل الشاب قليلًا نحو الماضي لكنه سرعان ما عاد إلى الوعي إلى أن تفاجأ الشاب بالطفلة في يوم

ما تطرق الباب تستأذن للدخول، فسمح لها، ثم بخطوات واثقة تقترب الطفلة الصغيرة من الشاب بهدوء وبنبرة فاترة: أريد أن أشتري بعض الأشياء من متجرك الصغير هذا، وأتمنى أن أجد ما يليق بفتاة بالغة مثلي.

يجيب الشاب: على الرحب والسعة أتمنى أن تجدي ما تريدينه هنا أميرتي الصغيرة، فذهبت الطفلة عند قسم الألعاب قائلة هل هذه باربي! يا إلهي صديقتي العزيزة لقد ظهر عليها تقدم العمر! خصلات شعرها صارت غير منسقة! حسنًا سأشتريها وسأعتني بها جيدًا، رجل مثلك لا يمكنه الاعتناء بفتاة غير عادية وجميلة مثل الأميرة باربي.

هل هذه الدبابة الصغيرة من نوع التايجر؟ قال الشاب مبتسمًا: في الحقيقة أيتها الأميرة لا أعلم، أنا مجرد بائع ألعاب فقط، ولم أكن خبيرًا عسكريًا حتى أعرف نوع هذه الدبابة، قالت الطفلة بدهشة بريئة: كيف لشاب مثلك لا يعلم الأشياء التي يمتلكها! هذا مؤسف للغاية، إنها التايجر يا سيدي البائع، درة تاج الجيش الألماني.

إن أبي يحتفظ بصورٍ لها، فقد كان ضابطًا في الجيش البريطاني، واستطاع بمفرده تدمير خمس دبابات من هذا النوع، لكن للأسف لا أحد يعلم ذلك ولم تتحدث الصحف نهائيًا عن بطولات أبي! يكفي أن يقولوا كما قال أبي "النصر يعود إلى تشرشل"، حسنًا سأشتريها، وأرجو أن ترفق معها تلك البندقية، أخي الصغير سيحتفي بها للغاية.

وبعد أن أنهت حديثها، سألها الشاب هل تريدين شيئًا آخر؟ قالت: نعم، أرغب في اقتناء بعض من مستحضرات التجميل وأتمنى أن تكون غالية الثمن وجيدة النوع خصوصًا أحمر الشفاه.

قامت الطفلة باقتناء كمية هائلة من المستحضرات بخلاف أصابع الروج الحمراء، ثم اتجهت ناحية الساعات فاختارت ساعة غالية الثمن، بجانب خاتم فضي وقفاز حريري، ثم بعد ذلك توقفت.

وبعد أن شعر الشاب أنها قد اكتفت سألها: هل هذا كل شيء؟ فتجيب الطفلة أنْ نعم، يمكنك الآن أن تحسب أشياءك.

في تلك اللحظة شعر الشاب أن هذه الإجابة مألوفة في ذهنه بعض الشيء لكنه لم يبالِ.

وبعد أن أخبرها بالحساب المطلوب تقوم الطفلة بإخراج النقود المطلوبة، يسألها الشاب بصوتٍ مُتهدج ونبرة متوسلة كأن هناك مشهدًا يخشى تكرار حدوثه: أتمنى ألا تكون النقود يا أميرتي الصغيرة عبارة عن حبَّات من الخوخ؟ تجيب الطفلة بغضبٍ بريء: لقد بالغت في إهانتي أيها البائع، يبدو أنني أخطأت حين منحتك الاحترام اللازم، هل أبدو أمامك لصة حتى أشتري منك كل هذا ببعض من حبَّات الخوخ، أرجو أن تتأدب مع زبائنك قليلًا!

اعتذر إليها الشاب بخجل مصطنع قائلًا: أعتذر إليك أميرتي، أتمنى أن تعتبريها مجرد دعابة أبوية.

ترد الطفلة: حسنًا لم يحدث شيء.

ثم واصلت الطفلة إخراج النقود المطلوبة التي ستجعل الشاب يرتجف من هول الماضي، فلقد أخرجت الطفلة بعض قطع البونبون قائلة له بنبرةٍ متعالية، هل هذا يكفي؟

هنا شعر الشاب برجفة رهيبة مصحوبة بهزات ضربت أعضاء جسده كاملة، في حين صارت الغصَّة تنعقد في حلقه شيئًا فشيئًا، كل ذلك ولم ينبس بكلمة واحدة أمام الطفلة التي سلبت روحه من حاضره، وأرجعتها عنوة نحو ماضٍ سحيق قد ظن الشاب أنه سيبقى فيه دائمًا؛ فلقد تذكر الشاب كل شيء الآن!

تذكر ذلك الطفل الذي اعتاد أن يقف خلسة على ناصية متجر مستر جونز، يرمق بعينيه قطع الحلوى من خلف الجدار الزجاجي!

وجد الشاب نفسه تلقائيًّا يجيب بنعم بل ولكِ نقود باقية يا طفلتي الجميلة، لقد أعطيتني أكثر من حقي، ثم وضع الشاب في يدها الصغيرة بعض النقود وقال لها: لقد سعدت بك كثيرًا فتاتي الأنيقة يمكنك الذهاب الآن.

خرجت الطفلة من متجره الصغير محتفية سعيدة، ووعدته أن تأتيه بصحبة أصدقائها في المرة القادمة كل ذلك ولم يكن باستطاعة الشاب التحرك خطوة واحدة، فلقد صنع منه الماضي تمثالًا من الشمع لا ينبغي له التحرك، لكنه تمكن في النهاية من إعادة العافية إلى بعض من جوارحه.

في وسط الصمت الرهيب، لاح أمام الشاب المتجهم طيف وردي تحاصره فقاعة مائية، ينتصب في بؤرتها هيكل شفاف يتخذ هيئة مستر جونز، وقبل أن تختفي الفقاعة، حين يتلاشى الطيف تدريجيًا، رفع الشاب عينيه الحانيتين وبصوتٍ هزيل شاحب: ما أصعب دينك مستر جونز! يرحمك الرب إن كنت ضيفًا خفيفًا على تراب الأرض، ولو كنت حيًّا الآن فإن دينك الذي في رقبتي قد سددته اليوم!

انتهت القصة، والآن، اسألني ماذا تعلمتُ منها!

تعلمت أن أي شيء فعلته في الماضي سيحمله الحاضر لي لكن بصورة أخرى تواكب العصر والحقبة والأيام واللحظات التي أعيشها، فكما تدين تدان. ديون وأثقال ستشعر بثقلها حتمًا حينما تصبح أنت في دائرة المسؤولية حيث عليك أن تضحي مجبرًا غير مُسير، وأنك السفينة التي عليها أن تبحر في موعدها وتصل في موعدها، لا وقت للمزاح، وقد كنت في الماضي مجرد راكب لا تكترث لكل ذلك.

تفاصيل صغيرة في الماضي قادرة على صنعك، كفيلة بتكوينك ونسج خيوط كيانك، لتجد نفسك أسير إرث قديم لا يمكنك الفرار منه، ستشعر وكأنك رأس دُب عملاق حُشرت في جحر سنجاب ضئيل الحجم داخل شجرة صغيرة.

الصورة قد تكون مؤلمة بكل تفاصيلها لكن في جوهرها دروس وعبر تظل مختومة في عقلك بختم الأبدية، ولا مجال هنا إلا للمشاعر الصادقة والضمير الحي الذي سوف تراه مثل مدفع صغير تظل ضرباته توقظك من آن لآخر تخبرك بيقظة الثعالب "انتبه فأمامك دين لزامًا عليك أن توفيه!".

لا أحد يسمع صرخاتك التي تضرب بقسوة شديدة في جسدك المرتعد من طنين الذكريات، عقلك وقلبك فقط من يمكنهما سماعها، لا يمكن لشخص غيرك أن يشعر بما ينتابك، لا يمكن لشخص غيرك أن يشاركك في إطلاق الحكم، سترى الدنيا محكمة خاوية من الحاضرين، لا شهود، ولا قضاة، ولا متهمين، أنت القاضي والمتهم في الوقت نفسه والأصعب من ذلك أنت من عليه إصدار الحكم.

في هذه اللحظة بالذات ستكتشف أنك وحيد رغم كل هؤلاء الأبناء والأحفاد والأصدقاء الذين يحاصرونك، أنت مجرد أسير حرب خاسر، وهؤلاء ليسوا سوى جنود منتصرين، ولا مفر لك من الهرب.

لكن الحذر كل الحذر يا رفيق الطريق، فربما يكون حكمك بمثابة اختبار لكونك إنسانًا أم غير ذلك.

العزوبية أم الطلاق

دائما ما أشبه فترة العزوبية بمملكة لا يسكنها غير المحظوظين، ملك بلا عرش، بلا جيش، بلا نقود أحيانًا، أسمعت عن ملك لا يملك هذه الأشياء؟

نعم، إنه الرجل العازب.

حتى الأبطال الخارقين الذين قرأنا عنهم في الكتب، وشاهدناهم أمام التلفاز، أولئك الذين كنا نقلد حركاتهم وتصرفاتهم بسعادة وعناية شديدة، هل سمعت أن أحدًا من أبطال هذه الأساطير قد تزوج!

أن تكون بطلًا عليك أن تكون عازبًا، هذه قاعدة لا يمكن كسرها أبدًا، لذلك ظل أبطال هذه الأساطير فرسان الأحلام لكل فتاة في كل عصر وفي كل مكان.

هل صادفت يومًا فتاة أخبرتك أنها لا تعشق الشخصية الأسطورية "هركليز" ذلك الرجل العازب الذي قضى على كل محاولات الإله هيرا الغاضب!

فبعد أن ركض خلف الغزال الأركادي المقدس طيلة شهر كامل دون توقف لينجح في النهاية بالإمساك به ثم أحضره للآلهة حيًّا! ودخوله بشجاعة عرين أسد نيميا صاحب الزئير المرعب الذي يدوي في كل أرجاء الغابة السوداء وقيامه بقتله وانتزاع أنيابه، ثم قيامه بالفتك بثور كريت العظيم، وتنظيف زرائب أوجياس الكبيرة في ليلة واحدة.

وبعد منازلة شرسة ودامية بسيوف الكاندا السامة، استطاع البطل الخارق هرقل قطع رأس العملاق المخيف "جيريو" الذي كان يفزع الصيادين البسطاء بالقرب من ساحل مقدونيا، ثم قضى على آخر فرد من سلالة أفاعي الهيدرا العملاقة صاحبة تسعة الرؤوس المرعبة، التي كانت تقبع في أعماق بحيرة السلاحف أقصى شمال جورجيا، ونجاحه في الإمساك بخنزيرٍ قاتل كان يعيش في إحدى غابات أريمنثوس، واصطياده ببراعة طيور ستيمفالوس المفترسة بواسطة قوسه الذهبي، تلك الطيور التي كانت تلتهم البشر عن طريق نزع رؤوسهم دون رحمة.

وبعد شقاء عام كامل استطاع هرقل تقييد الوعل المذهل الذي اعتاد أن يسعى بطمأنينة بين حدود مدينتي أركيديا وأرخيا بقرونه الذهبية وأظلافه البرونزية، يا إلهي لقد جاء به للآلهة حيًّا، وختامًا قضاؤه على "الكلب كروبيروس" حارس أبواب العالم السفلي.

وفي النهاية لم تجد الآلهة مفرًا من أن تُقلد هرقل ملكًا متوجًا، فلقد اجتاز كل تلك المخاطر، ولم تكن بجانبه فتاة ولا زوجة!

والآن تخيل معي لو أن البطل الأسطوري الخارق هرقل العظيم لم يكن عازبًا، بل كان من المحظوظين الذين أوقعهم القدر بفتاة حسناء مثيرة، قابلها صدفة فوق سفح أحد الجبال، فعرضت عليه شطيرة لحم من حيوان الماموث

مقابل أن يتزوجها، هل تعتقد أنه بزواج هرقل السعيد ستحكي كتب الأساطير عن رجل أنقذ جبل أوليمبوس من شرور عمه الطاغية هاديس!

بل ستحكي الكتب في آخر السطور المُهمشة التي لا نقرؤها عادة عن رجل متزوج، ذي بطن متدلٍّ، وأقدام نحيفة، يلاحق الماعز الأليف في البراري؛ ليأتي بها طعامًا لزوجته، ليظفر برضاها، ولتكف عن الثرثرة قليلًا، حتى يهنأ حينها بنومة هادئة ولو قليلة في كهفه البسيط المبعثر.

إن القاعدة ليس لها استثناء والمبادئ لا يمكن تجزيئها وفقًا للميول والأهواء؛ فإن أردت أن تكون ملكًا، فكن عزبًا، علاقة لا جدال فيها.

وفي الحقيقة أيها الأمير المتوج يمكنني جيدًا تحديد ذلك الشخص القادر على تدمير مملكتك الحصينة، وتحويلك من ملك بلا عرش، إلى مملوك ضعيف، مكسور الأجنحة منزوع الحرية، لتغدو حياتك مثل عقارب الساعة؛ ينبغي لها ألا تتوقف، بل تظل حبيس الدائرة لا يمكنك الخروج منها نهائيًّا.

إنها مجرد أيام فقط، وجسدك الرشيق سيذهب إلى غير رجعة، لتأتي مكانه منعرجات تفوق منعرجات أيت ساون الخطيرة، وعضلات بطنك الثماني التي طالما كانت تُبهر الفتيات المراهقات، سيغدو مكانها منحدرًا من الشحوم إلى بطن يكاد يصل إلى ركبتيك من ضخامته، وستنضم بجدارة إلى قسم الشارونيات بكل فخر.

وسوف تذهب أيامك السمان التي كنت تجلس فيها لا تأبه بشيء، لتقول بحزن ظاهر، وذلك بعد أن تأخذ رشفة صغيرة من فنجان القهوة التي صارت باردة نظرًا إلى غزوات التفكير "كانت أيامًا جميلة بحق، أين ذهبت تلك الأيام الخوالي!".

وتأتيك على إثرها أيام عجاف، تجعلك تبكي على يوم لعين، لمست فيه قدماك أرض ذلك الكوكب، الأمر الغريب يا صديقي أن أقرب الناس إليك هم الذين يفعلون ذلك بك "رائحة خنجر بروتس تلوح في الأفق".

حسنًا، دعني أخبرك بسرعة دون إطالة إنها أمك أيها الملك، أقسم أنه لا يستطيع أحد الاقتراب منك وتدميرك إلى هذه الدرجة، وجعلك زوجًا تعيسًا غيرها، ولذا، حصِّن مملكتك أيها الأمير قبل أن تصنع منك أمك مسخًا تعيسًا، وذلك بعد أن كنت ملكًا.

ولأني شاب عازب، فإن أمي لا تتركني يومًا إلا وتُلِح عليَّ بفكرة الزواج؛ مهددة إياي أن طبق عشائي يوميًّا سيكون دائمًا هو طبق السبانخ، في حالة رفضي أو نسيان الأمر، تخيل! ملك يأكل السبانخ فقط! إن ذلك وضع لا يناسب مملكتي، ولا يليق بي نهائيًا.

إن أكثر ما أخشاه هو أن يتضاعف ذلك التهديد من أمي، وبدلًا من أن يصبح طبق السبانخ وجبة أساسية في العشاء فقط، يمتد إلى بقية الوجبات، ليصبح وجبة أساسية في الإفطار أيضًا.

وهنا سأطرح عليك هذا التساؤل البسيط: هل سمعت عن ملك أو حتى صعلوك في القرون الأولى، أو القرون الوسطى، أو حتى في أيامنا تلك وجبة إفطاره عبارة عن ورقة صغيرة من أوراق السبانخ؟

والآن أخبرني يا صديقي العزيز، ماذا أفعل لمواجهة ذلك التهديد الشنيع؟ فلن تتوانى أمي الغالية أبدًا عن تنفيذه، ولن تراعي أنني ولدها فلذة كبدها.

في الواقع، أنا لست رافضًا بشدة فكرة الزواج والارتباط، بالعكس، سأبدو سعيدًا للغاية حينما يكون لي طفل عابس الوجه مثل أبيه، وثرثار مثل أمه الحسناء، ومن المؤكد أن تكون فكرة الزواج مقبولة بدرجة كبيرة، لو كان لي أقرباء من الشيشان، أو أوزبكستان، تلك المخلوقات فائقة الجمال والملامح الرقيقة، ذلك المخلوق الذي يتغذى على الفراولة والآيس كريم، رهيف القلب بحيث لو حدثته بقليل من الحِدة لسقط مغشيًا عليه، لا يتحدث نهائيًّا، فعين ذلك المخلوق تبوح لك بكل ما ترغب في سماعه، وفوق كل هذا وذاك لن تكون مضطرًا أن تهديها هاتفًا باهظ الثمن؛ فهي لا تحتاجه من الأساس، ستشعر بدفء رومانسيتها ومشاعرها وحرارتها، حتى لو كنت في المحيط القطبي.

أما بخصوص أطنان الذهب فمن الحماقة أن تحضر لها ذهبًا، أسمعت عن ذهب يلبس الذهب، أو جوهرة ترتدي الجواهر!

وبخصوص المنزل الذي لا بدَّ أن يحتوي على خمس حجرات على الأقل فلا تنزعج بهذا الشأن وكن مطمئنًا تمامًا، فهي ليست من عشاق الحياة في اللوكاندات.

أما ذلك المنتج المحلي فمجرد التفكير فيه يجعلني أشمئز من فكرة الزواج من الأساس؛ فليس هناك ثمة شيء يغريني على فعل تلك الجريمة الشنعاء في حق نفسي، فمن ناحية الجمال مثلًا، فإن جمال ذلك المنتج المحلي ينحصر في وقتين اثنين لا ثالث لهما: الأول لحظة التزين بمستحضرات التجميل، ولأكون منصفًا بحق، سيبدو هذا المنتج مثيرًا وجذابًا، وسرعان ما تكتشف أنك كنت مخطئًا حينما ظننت أن ماريا شاربوفا ليس هناك من هي أجمل منها على وجه الأرض.

والثاني زمن ما بعد نزع أدوات التجميل، هنا ستكتشف أنك أكثر رجال العالم حماقة وسذاجة، فالوجه الجميل الذي انبهرت به منذ قليل لن يختلف كثيرًا عن وجه أنثى شامبنزي تقذف الناس بالطوب في شوارع مومباي، وهذا الجسد الرشيق الذي يشبه تحفة فنية منحوتة على يد أحد أعظم نحاتي القرون الوسطى! انس ذلك الأمر، لقد تزوجت ميشلان ذاته.

وأما بخصوص رومانسية ذلك المنتج المحلي فهي بإمكانها أن تخوض حروبًا شرسة معك ومع الجيران والأصدقاء، والتلفظ بألفاظ رومانسية تناسب رجولتها تمامًا، وبالنسبة إلى الطعام، فإن الفراولة والآيس كريم،

وجبات لا تعدو أن تكون تحلية لا أكثر، وذلك بعد أن تكون قد التهمت ثلاثة أطباق من المحشو ودجاجة مسكينة أوقعها حظها العاثر بين أنياب فرس النهر الذي لا يرحم، وقد تلتهمك أنت شخصيًّا لو دفعها الجوع الشديد إلى ذلك.

وبعد أن تفرغ من وجبتها الخفيفة تلك، يمكنها الآن أن تفكر في الفراولة والآيس كريم والموز والأناناس، إلخ، لتخلد بعدها إلى النوم الهادئ؛ حيث أمامها مواجهة شرسة مع العمالقة والأشباح في المنام.

كما أن من أسباب عزوفي عن الزواج بالمنتج المحلي، واعتباره عرضًا غير مقبول من وجهة نظري أنني لا أمتلك الكثير من الوقت في حياتي اليومية، فتخيل فقط كم يستهلك مثلي من الوقت، بداية من الخطوبة التي تتطلب ملابس خاصة لهذه المناسبة العظيمة التي ينتظرها سكان الأرض والكواكب المجاورة ولا سيما سكان المريخ.

تخيل معي قدر الساعات التي ستقضيها عند الخياط لعمل البروفات، لن يقل الوقت عن ساعتين في كل زيارة، كأن الخياط سوف يفصل لي جلد نمر بري يفكر في اصطياده على قدر جسدي، لا مجرد قطعة قماش سأرتديها ساعة من الزمن، ثم قد ألقيها في النار بعد ذلك، أو في أحد صناديق القمامة، وبعد أن أنتهي من دورة التدريب على الخياطة الطويلة، التي تعلمت على إثرها كل ما يتعلق بأسرار الخياطة والحياكة، وهذا أمر منطقي فحينما تعتاد التردد لمرات عديدة والانتظار طويلًا عند الخياط حتى يمكنه الانتهاء من تفصيل الملابس

مرة للخطوبة وأخرى للشبكة ثم ثالثة للفرح، فهذا يعني أنني قد عرفت كل كبيرة وصغيرة عن هذه المهنة، ومن المحتمل أنني سوف أمتهن هذه الوظيفة بعد أن أفرغ من ليلتي السعيدة.

وتأتي الخطوة التي تلي تعلم الخياطة، وهي رحلتك الطويلة والمريرة في عالم التورتة والجاتوه، وكل ما يتعلق بالسكر والعسل والقطايف واللطايف، بجانب أنواع أخرى متعددة من الحلوى، عليك الآن أن تدخل محل الحلويات لاختيار التورتة التي لا بدَّ أن تكون من الحجم الكبير، فمعدة الضيوف وخصوصًا أهل العروس ستحتاج إلى تورتة بضخامة جبال الألب، وأن يصل ارتفاعها لتناطح برج خليفة الشاهق، ولا بدَّ أن تحمل التورتة صورة تجمع وجهك الذي لا يُعبر عن أي شيء بجانب وجه زوجتك الحسناء، بالطبع صورتها لا بدَّ أن تكون بالمكياج الكامل، أما غير ذلك فهي الكارثة التي ستحِل على رأسك، بسبب ذلك الخطأ الذي لن تغفره لك، فعليك أن تحذر وتنتبه جيدًا إلى هذه المسألة الخطيرة والهامة جدًّا.

ثم بعدها تحمل التورتة وأطنان الجاتوه وحُلتك الأنيقة، وتركب سيارتك لتعود بسلامة الله إلى المنزل، هذا إن كنت تملك سيارة من الأساس! وفي هذه الحالة فلسوف يستغرق الأمر من نصف ساعة إلى ساعتين بالنظر إلى ظروف ومغامرات الطريق.

أما لو كنت فقيرًا مُعدمًا مثلي، فسوف تضطر إلى ركوب سيارة أجرة، وبعد مرور ساعتين في الزحام وضوضاء الطريق، وأصوات بائع الذرة المشوي وبائع البوظة، بجانب المشاجرات اليومية بين السائقين التي تنتهي عادة بفتحة أفقية في رأس كل منهما.

والغريب المدهش أنهم بعد كل ذلك الشجار العنيف وتلك الدماء المسالة تراهم يعودون أصدقاء من جديد، وكأن شيئًا لم يكن، ثم يستأذنك السائق فعليه أن يذهب إلى محطة البنزين ليتزود بالوقود؛ لتصل في النهاية إلى المنزل بعد أربع ساعات قضيتها فقط في العودة بالتورتة وأسراب علب الجاتوه، وعندئذ لو كنت تظن أن تلك الحمولة قد نجت من معركة الدبابات هذه، فاعلم أنك ساذج أيها العروس المنتظر.

وسوف تبدأ هذه المشكلة في التفاقم حينما تعلم حماتك بهذا الأمر، فصدقني لن تقبل أي أعذار منك، يكفي أنها من أجلك لم تزوج ابنتها لابن السفير السابق الذي يعشق لعبة التنس والفروسية!

والآن عليك أن تنتظر الأهل والأقارب حتى يكتمل العدد عن آخره، فلا يمكن لك الذهاب إلى قاعة الفرح في حالة غياب أحد أفراد العائلة، ومن العار أن تدخل قاعة العرس وابن أخت خالة جدك لم يأت بعد، سيكون الأمر محرجًا للغاية!

والآن دعني أطرح عليك تساؤلًا منطقيًا مُلحًّا، هل تخيلت كم من الوقت ستضيعه بسبب ليلة بائسة مثل ليلة عرسك تلك؟

بكل تأكيد سوف تفقد كثيرًا يا صديقي المسكين، ستفقد وقتًا ثمينًا كان من الممكن أن تقضيه في شيء أهم من ذلك كثيرًا، كأن تجلس مع أصدقائك على المقهى، تتناول كوبًا من الشاي في الخمسينة، وتتبادلون سخافات النكات، وأطراف الأحاديث معدومة القيمة، أو أن تجمع عشرة من أصدقائك، ولا بأس أن تكمل العدد من أولاد الشوارع، ثم تقوم بحجز ساعة في الملعب الخماسي القريب لممارسة لعبة كرة القدم، فربما مرَّ عليك أحد الخبراء الكرويين صدفة، فينتشلك من جحيم الزواج، والتورتة التي تدمرت، وغضب حماتك وأحاديثها المزعجة بشأن التورتة والشاب الوسيم ابن السفير عاشق الفروسية ورياضة التنس، ليبتسم لك القدر أخيرًا وتصبح لاعب كرة قدم شهير، في ناد كبير، تملك الملايين من الدولارات التي على إثرها ستنال إعجاب الفتيات الحسناوات، وترافقهن بعيدًا عن عيون كاميرات الصحفيين الذين يطاردونك في كل مكان، فأنت أشهر لاعب في العالم، لا سيما بعد أن كنت سببًا في حصول مصر على كأس العالم لأول مرة في تاريخها، بعد هدفك الرائع الذي قمت بإحرازه في الدقائق الأخيرة.

بعد كل تلك المميزات العظيمة التي سردتها لك، ومن شأنها أن تجعل فكرة الزواج بهذا المنتج المحلي أمرًا مغريًا بشدة، فقد أصدرت قرارين صعبين جدًا، وعليك أيها الأخ العزيز أن تساعدني بقوة في تنفيذهما، حيث قررت ما يلي:

أولًا مصاحبة بائع السبانخ، واعتباره أخًا لي لم تلده أمي، أو صديقًا ربما أفضله عليك أنت شخصيًا. ثانيًا شراء جميع كمية السبانخ يوميًا، حتى لو كانت فاسدة، فلا يهم ذلك، وإعطاؤها لأمي، لتكون من اليوم فصاعدًا هي الطبق المفضل لي في جميع وجباتي.

أعتقد أنني سأكون في أفضل حال وقتها، لا سيما حينما قرأت عن الفوائد المتعددة لطبخة السبانخ الصحية وسيكون الأمر مغريًا أكثر من فكرة الارتباط بالمنتج المحلي الذي يضر بصحتي ويدمرها.

القصة لم تنتهِ بعد فتاتي الغاضبة

اللعنة على أمثالك أيها الوغد! أرجو أن يكون أنواعك من الرجال قد انقرضوا منذ زمن بعيد، لتذهب أنت وسلالتك إلى الجحيم الأبدي الذي لا عودة منه إطلاقًا.

بالتأكيد سيكون هذا ما يدور في ذهن أية فتاة تقرأ هذا الكلام السخيف عنها، وربما تخرج اللعنات من دائرة الذهن إلى أطراف ألسنتهن، يا للحسرة! لن أكون بعد الآن فارس أحلام أيٍّ منهن؛ إذ كيف يحدث ذلك! وقد وصفتهن بأقبح الأوصاف في هذه السطور.

لا تتعجلي أيتها الفتاة، فهذه السطور مجرد مزاح معك، نوع من لفت انتباهك حتى تستمعي إلى ما أريد قوله في هذا المقال، فأنتِ ما زلت فتاتي الجميلة وطفلتي الشقية، اعتبري ذلك على سبيل الدلال لا أكثر، ينبغي ألا يخرج هذا الحديث من منطقة الوعي الماكثة في عقل أي إنسان يعيش على هذه الأرض، بل اعتبريها سيدتي الجميلة مجرد هذيان يصدر عن منطقة اللاوعي الخاوية من الحكمة والقيمة.

وفي الحقيقة أنا لست ضد الفتيات أو النساء بصفة عامة، ولم أكن يومًا من العنصريين والمتشددين الذين يمقتون كل شيء أنثوي في هذه الحياة، وأفتخر بشدة أنني لست من عشاق القراءة للكاتب السادي الشرس "ماركيز دي ساد"، ولم أقرأ سطرًا واحدًا من كتبه العنيفة تلك، حتى تُحفته الملعونة "جوستين" لم أفكر قطُّ في اقتنائها.

قد يكون غلاء أسعار هذه الكتب حجة مقنعة جدًّا، وكافية كي لا أشتريها، ففكرة أن أروع شيء وأمتع إحساس يمكن أن يشعر به الرجل ويصل به إلى ذروة النشوة هي تلك اللحظات التي يقوم فيها بتعذيب المرأة جسديًّا، كأن يجلدها أو يقوم بجرحها بمشرط أو قطع إصبع لها بواسطة سكين المطبخ، أو أن يقوم بحرقها، وسكب الحديد المغلي على رأسها، ثم القيام بصفعها على وجهها بقوة.

بكل تأكيد هذا ليس إلا رجلًا مريضًا عاجزًا، لا يشعر برجولة مطلقًا في داخله، عازمًا البحث عنها بين صرخات النساء وجروحهن بتعذيبهن عذابًا مؤلمًا لا يتحمله أقوى الرجال في العالم، وبهذا يكون قد نجح في إكمال دائرة الرجولة المزيفة في عقله الأجوف، نأمل أن أمثاله من الرجال قد انقرضوا مع الديناصورات والماموث وطائر الأوك العظيم.

كما أنني لا أتذكر أنني كنت عضوًا قديمًا في المنظمة الدولية الكبيرة "يا رجال العالم اتحدوا" بالرغم من أنني كنت من أكثر المعجبين بالمسلسل المصري الذي حمل هذا الاسم نفسه.

والآن وكما ترين أيتها الفتاة التي تقرأ سطوري إن حديثي الذي أزعجك هو مجرد هذيان من عقلي المندهش الذي صار يرفع حاجبيه تعجبًا من هول الصورة المشوهة وعبث المشاهد التي نراها ونسمعها.

فنحن نتحدث عن نسبة الطلاق في هذا العصر، تلك النسبة التي تتعدى نسبة الزواج فيه، وكأن غاية الزواج هو الطلاق بعد ذلك، لقد فاقت ظاهرة الطلاق جميع المعدلات التي من الممكن أن نتوقعها، وبالطبع فإن الوضع يصبح مقلقًا كثيرًا، لدرجة تجعل الشاب يعزف عن الزواج إلى الأبد، فكلا من الشاب والفتاة غايتهما من الزواج غاية واحدة مشتركة، يكون أول مراحلها الهدوء والسكينة، وهذه أشياء لا تأتي إلا بالاستقرار الذي من المفروض أن يجلبه الزواج.

زوجة جيدة مطيعة ومتفاهمة، ومتقاربة معي في العقلية ومهذبة تهذيبًا يناسب تربيتها الفاضلة، ولتذهب دون رجعة كل عشوائيتي وتسكعي في الطرقات وتصرفاتي غير المحسوبة التي لم أكترث لها قطُّ في أيام العزوبية، فبعد أن كنت شابًّا وحيدًا أصبح بجانبي فتاة جميلة وزوجة صالحة تمكث معي أبد الدهر بكل إخلاص واحترام متبادل وتشاركني تفاصيل الحياة جميعها.

ثم ما هي إلا شهور أو بضع سنوات وأحلق مثل العصفور المُغرد من الفرحة والسعادة حينما تخبرني زوجتي أنها حامل في مولود، يجدد الحياة ويمنحها دافعًا للاستمرار.

أنتقل بعدها إلى مرحلة أخرى أكثر جدية من المراحل السابقة، وقد أصبحت في أعظم مرحلة وأروعها على الإطلاق، لقد أصبحت والدًا لطفل

يحمل كثيرًا من ملامحي ويشبهني كثيرًا في الحركات والتصرفات، لأعيش حياتي بين جدران دافئة بحنان زوجتي وشقاوة طفلي الصغير.

ثم تجري السنون تلو السنين ليصير ابني شابًّا يافعًا، وقد صرت كهلًا، ثم عجوزًا، فتدور العجلة من جديد، ليصبح ولدي عروسًا، وبعدها بشهور يصبح أبًا ولديه طفل، حينها بالتأكيد أكون قد فقدت كثيرًا من صحتي، لقد أصبحت هرمًا قارب التسعين من عمره فتأتي آخر لحظاتي في هذه الحياة، ويعلن الموت نهاية رحلتي الهادئة في هذه الدنيا.

هذا ما نعتقده -أو نتمناه- في حياتنا بمراحلها جميعًا، مرحلة تسلم إلى مرحلة، إلى أن تأتي المرحلة الأخيرة التي لا حياة بعدها.

ولكن لا تجري الأمور هكذا دائما، كما نظن أو نريد، بل يحكم العبث كل أرجاء تلك المراحل، فقد أصبح الزواج مشروعًا يحمل في طياته قنابل عنقودية لا ترحم، ولا تقل قسوتها وبشاعتها عن بشاعة القنابل النووية، ودانات المدافع العملاقة.

لست منحازًا إلى فئة الشباب والرجال بحجة أني رجل، بل العكس هو الصحيح، فأنا أرى أن أغلب أسباب الطلاق في مجتمعنا سببها الشاب أو الرجل، فهناك شاب لم يبلغ سن الرجولة بعد، لكنه ظن أنه رجل بمجرد أنْ قد صار صوته غليظًا، ثم قرأ بعض الأوراق من كتاب، فتوهم حينها أنه أصبح رجلًا واعيًا ومتفتحًا يمكن لعقله المثقف المليء بكلمات الكتب أن يحتوي

عقول سيدات العالم جميعهن، وليس مجرد فتاة واحدة، لا سيما عندما يعتقد أنه ما دام يملك وظيفة بمرتب خيالي فهذا يعني أنه أصبح مؤهلًا لصنع أسرة سعيدة، يدير أمورها بعقله الراجح المكتظ بحكم الفلاسفة والنوابغ.

على الجانب الآخر، فإن المرتب العالي والحياة المرفهة والوضع الاجتماعي مما يغري أهل الزوجة، ويظنون أن ابنتهم قد فُتحت لها طاقة القدر، وسرعان ما يتم الزواج سريعًا، إنه عروس لن يتكرر، وسيكون من الغباء التفريط فيه؛ لتدخل الفتاة المسكينة المغلوبة على أمرها جحيم عدم نضوجه وعبثه الطفولي، لينتهي بعدها هذا الزواج السعيد في كرسي أنيق قاتم اللون داخل محكمة الأسرة، بعد أن تتنازل الزوجة عن كل مستحقاتها حتى تهرب بجلدها من جحيم هذا المعتوه.

أو قد يعتقد الرجل في مخيلته الكاذبة أن زوجته مجرد خادمة ملزمة بتنفيذ كل ما يريد من طلبات، فتارة تصبح طاهية ماهرة تملأ كرشه الضخم بأصناف المأكولات الشهية، أو قد يراها مجرد جارية للمتعة لا يصلح لها في هذه الحياة إلا أن تشبع شهواته الحارقة حتى تصبح فكرة الاستمرار في هذا الزواج فكرة غير مقبولة، بل مستحيلة مع هذا الرجل، وتكتشف بعد سنوات أن حياتها صارت لا تملكها، فليس هذا الحلم السعيد الذي حلمت به حينما تتزوج من فارس أحلامها، ليس ذلك ما سمعته في الأغاني الرومانسية الموجودة في هاتفها، وأن ذلك الواقع المؤلم ينافي تمامًا ما شاهدته في الأفلام والمسلسلات.

لقد كشَر لها هذا الواقع المرير عن أنيابه، إنه عالم لا تعرفه، ولا تنتمي إليه مطلقًا، وعليها الآن أن تتنازل عن كل شيء! فلقد صارت الفتاة المسكينة في حيرة من أمرها حائرة بين أحلامها الوردية، وبين حقيقة الحياة المظلمة التي صارت تسكن بين جدرانها، فبعد أن كانت فتاة مرفهة في بيت والدها، تجد نفسها أسيرة رافعة الراية البيضاء أمام مطحنة الحياة، وزوج لا يستوعب قلبها الرقيق، وعقلها الذي يرغب فقط في عشق الحياة عشقًا ملونًا بألوان الزهور.

أسباب تفشي ظاهرة الطلاق

مما لا شك فيه أن هناك أسبابًا عديدة يمكننا الحديث عنها لنجيب عن ذلك السؤال المُلح، لمَ تتفشى هذه الظاهرة المؤسفة، لم تزداد ظاهرة الطلاق بصورة متفاقمة في بلادنا!

لعل من أبرز هذه الأسباب وأعظمها وأخطرها على الإطلاق هو سوء الاختيار، أو لنقل الاختيار الخاطئ.

من وجهة نظري أجد أن مبدأ الاختيار هو جوهر الزواج، وهو الذي يحدد ماهية العلاقة.

دعك من أحلام الفتيات في منامهن عن فكرتهن الخاطئة بفارس أحلامهن المنتظر، فالواقع يختلف تمامًا عن هذه الشخصية الكرتونية التي يتخيلنها، وربما تكون حقيقية في عالم آخر مواز غير عالمنا.

أما هنا في عالمنا فإن فارس الأحلام المنشود هو الذي تصنع منه التجارب والزمن رجلًا يستحق قلب فتاة بريئة ترغب في عيش حياة هادئة مع فارسها الجميل، ولكن الفتاة أحيانًا هي التي تحطم مبادئها بيديها، وهنا تكمن الخطورة، وتنقلب الموازين.

خذ مثلا، فتاة تشترط أنها لا ترغب في رجل يدخن، أو فيه بعض الصفات الخلقية المعيبة التي تحددها بدقة في ساعة صفا عندما تجلس مع نفسها، أو مع صديقاتها يتجاذبن أطراف الحديث، ولكن حينما يأتي الزوج المنتظر وهو رجل ثري ينتمي إلى أسرة ذات مكانة بين الناس، هنا تقوم الفتاة

نفسها بتدمير كل مبادئها لأجل العروس الثري صاحب المكانة الكبيرة، فحينما تكتشف أن الزوج المقدم لها يدخن السجائر بكل أنواعها، وأن الصفات التي عدتها رذيلة لا تريدها في زوجها المستقبلي موجودة فيه، تتغاضى عن كل ذلك من أجل المال والأسرة الأرستقراطية التي سوف تنتمي إليها، وتنسف معتقداتها السابقة، وتظن أن هذه الشروط ليست عائقًا أمامها، فهي ترى نفسها بعقلها المستنير قادرة على أن تجعله يكف عن التدخين نهائيًا، وأن تغير سلوكياته المنحرفة التي أدمنها.

بالطبع ستفشل مثل هذه الفتاة فشلا ذريعًا؛ لأن تجارب الحياة وخبرات الزمن الشحيحة التي تناسب فتاة تنتمي إلى أسرة محافظة تمنع العمل والاختلاط، وبخاصة حينما تكون الأسرة ذات حالة مادية مقبولة، وتقطن في قرية ريفية بسيطة، تحكمها أعراف وتقاليد تمنعها من الخروج كثيرًا.

وتبدأ الفتاة وقتها في تسديد ضريبة الاختيار الخاطئ، ومعها أيضًا عائلتها التي وافقت بكامل إرادتها على هذا الزواج؛ لتجد نفسها أمام تساؤل ملتهب لم تستمر علاقتي مع رجل لا يملك مبدأ يتشبث به، لقد أصبحت أمور حياته غير مقبولة، فما دمت لا أزال أمتلك قدرة الاختيار بين راحتي وقدرتي على ركل تعاستي من حياتي كلها، فلم لا أفعل! وعندئذ تكون النهاية المحتومة، ويكتب الطلاق آخر سطور الحياة الزوجية بينها وبين زوجها متقلب المزاج عديم المبدأ.

هكذا تكون الأمور منطقية تمامًا، فحينما تتجزأ المبادئ، وتصبح وسيلة لإخضاع عناصر الاختيار لشهوة النفس، فلا تلقي باللائمة حينها على الظروف والأقدار، ولا على الطرف الآخر، وعليكِ تحمل النتائج التي ستنجم بعد ذلك.

وإليك سببًا آخر أراه من الأسباب الكارثية بدرجة كبيرة؛ لأنه لن يمس فقط الزوج والزوجة بل يضم معه الأبناء والأسرة جميعها، ألا وهو الحالة المادية التي تعاني منها كثير من الأسر في مجتمعنا.

في الحقيقة لا أعلم كيف لشاب فقير فقرًا مدقعًا لا يملك منزلًا خاصًّا به، سواء قد شيده بماله أو أخذه وراثة عن أبيه، ولا يملك أي سبب يسمح له بالزواج غير راتبه الشحيح الذي لا يكفي لربع الشهر، ليقرر -وبكل حماقة غير مدروسة- أن يتزوج في ذلك الوقت، لتكون بعدها الخطيئة العظمى التي لن يدفع ثمنها وحده حتمًا!

لقد حصر فكرة الزواج في مشاهد المضاجعة في الأفلام الأجنبية، التي يرى فيها مشاهد الجنس بين زوجين أو عشيقين فيظنها أوقاتًا غير مكلفة الثمن، فيكفي فقط منزل صغير خشبي على شكل هرمي يشبه إلى حد كبير بيت الكلب في سلسلة أفلام الكرتون الشهيرة توم وجيري، أو من الممكن أن يجد العاشقان مراحيض الملاهي الليلية في ضواحي باريس مكانًا مناسبًا ورخيصًا للمضاجعة، هذا عالم لا يمكننا مقارنة عالمنا به.

نحن أمة تحكمها قواعد وأعراف تحدد ماهية مجتمعنا بقوانين لا يجوز كسرها، لا يمكننا أن نتعدى كل هذه الحدود، وأن نضرب بكل الضوابط عرض حائط برلين، لقد قال النبي الكريم في حديثه إلى الشباب "يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج.".

إذن فنحن في حاجة إلى نوع من الوعي لمعرفة ماهية الاستطاعة نفسها، التي وضعها النبي العظيم شرطًا للشاب حتى يمكنه أن يتزوج، فالمفاهيم تتغير في كل الأزمان، ولا تقِس المفهوم في زمنك المعاصر مع الأزمان الماضية الأخرى.

المال، العمل الدائم، المنزل، قلة الديون، معرفة مسؤولية الزواج، التفاهم والتقارب العقلي، كل هذه المفردات تحيطها دائرة ذهبية اسمها الأخلاق، فلا يجوز أن نتخذ مشروعًا عظيمًا مثل الزواج كنوع من (البرستيج) دون أن نعلم الكوارث التي قد تنتج عن هذا القرار الخاطئ.

وأنا هنا لا أحرم الزواج على الفقراء، فليس من المنطق أن أدعو إلى ذلك الأمر، لأن هذا أيضًا يتوقف على مدى معرفتنا بماهية الفقر ذاته، فكل ما أقصده هنا هو أن يكون الفقر حائلًا بينك وبين أن تصبح زوجًا وربًّا لأسرة بها زوجة وأبناء يحتاجون إلى المال ومتطلبات أخرى، فمن وجهة نظري -وقد أكون عنيفًا في ذلك الحكم- أن ذلك المُعدم عديم المسؤولية الذي يقدم على الزواج وهو لا يملك شيئًا يجعله قادرًا على تحمل مسؤولية الزواج وتكاليفه

هو بمثابة مجرم بل من أخطر المجرمين الذي عرفهم العالم، إن أمثال هؤلاء الذين يظنون أن الفقر المُعجز وقلة الوعي والجهل بالمسؤولية المنتظرة ليست حائلًا بينهم وبين الزواج، يستحقون بجدارة أن يزج بهم في السجون كأي مجرم آخر ومحاكمتهم محاكمة عادلة ليُعدموا بعدها على الفور.

فلا بدَّ من توافر جميع أطراف معادلة الزواج وأركانه، ولو فقد ركن فلا بأس أن تتخذ الصبر -أخي العازب- حلًّا سحريًّا لك، بل بالعكس سيكون الأمر أفضل من أن تتزوج وهناك ركن من معادلة الزواج غير موجود.

فلا بدَّ أن تعلم أنك ستكفل فتاة كانت بمثابة الملكة في بيت أبيها، هي معدن نفيس، عليك أن تحميه من الصدأ، جوهرة فريدة لا يليق بها الشروخ والتصدعات.

من أكبر الدلائل الواقعية التي تثبت أنه علينا -معشر الرجال- تقدير النساء، ما فعله الأمير النبيل هاري ابن الأميرة الراحلة الجميلة الرقيقة ديانا، لقد قرر ضرب كل القواعد، وسحق جميع الضوابط التي وضعتها العائلة المالكة، عندما قرر الزواج من فتاة لا تنتمي سلالتها من الأساس إلى الملوك، ولم تجرِ في دمائها نقطة دم واحدة من دماء الأمراء والأميرات، وبالرغم من كل تلك العقبات قرر أن يحارب الجميع من أجل طفلته البسيطة، هذا هو الرجل الذي بالفعل يرغب في جعل فتاته ملكة، رغم أنها في نظر عيون سكان قصر باكينجهام مجرد راعية غنم لا أكثر.

والآن أنت تسمع أخبارًا متداولة تفيد بأن الأمير هاري سيقرر التنازل عن لقب الأمير، كل ذلك من أجل زوجته التي يعشقها، فمن أجلها قرر أن يتنازل عن كل شيء يقف عقبة في سبيل الاقتراب منها.

وبالطبع يمكنك سماع قصة الحب المتبادلة بين الأمير هاري وبين ميجان ماركل، تلك الحادثة التي صارت قصة حب مستمرة وناجحة، لا تقِل عن قصص الحب التي نسمع عنها مثل روميو وجولييت في مسرحيات شكسبير، وأحمد ومنى المكتوبة على جدران المباني!

ولكن عليك أن تنتبه جيدًا قبل أن تقوم بتضحية مثل هذه، ففي كثير من الحالات تصبح هذه التضحية الكبيرة في مهب الريح، ويدفع ثمنها الرجل وحده، مثل التضحية التي دفع ثمنها اللاعب الإيطالي ومحارب روما العظيم دي روسي، إذ دفع ثمن تضحيته الباهظة من أجل فتاة غير مخلصة لا تستحق ذرة احترام واحدة، لقد حارب الجميع من أجلها، ووقف معها مثل الأسد الذي يدافع عن عرينه وأشباله، لا سيما حينما يكون دي روسي أمير روما، وخليفة الملك توتي على عرش مدينة التلال السبع، وبعد أن جعل لها الخيال حذاءً أنيقًا تزين به قدميها، يكون جزاء الزوج المخلص في النهاية الخيانة والرحيل برفقة واحد من أشباه الرجال.

أنا شخصيًّا أعتقد أن العدالة قد تحققت في نهاية هذه المأساة التي داهمت دي روسي، شبه رجل برفقة امرأة خائنة، هذه بالفعل ثنائية تليق بهما كثيرًا لا

تقل روعة عن ثنائية حسام وإبراهيم حسن في كرة القدم، فكيف لخائنة مثل هذه أن تكون زوجة لفارس محارب من طراز دي روسي؟

لتنقلب على إثر تلك الخيانة حياة محارب روما العظيم ولاعبها رأسًا على عقب، فيتحول من لاعب هادئ خجول إلى وحش عصبي عدائي الطبع، يلعب بروح قتالية مثل روح جنكيز خان المتغطرسة، يرغب بالفتك بكل الخصوم دون رحمة أو شفقة قد تنتابه، ولا يلتفت لحظة إلى ضحايا الالتحامات العنيفة مع خصومه.

فهذه القتالية والشراسة والبطاقات الحمراء الغزيرة لم تأت قطُّ من فراغ، بل جاءت من هذا القلب الجريح من ألم الخيانة وضريبة الإخلاص، فكل من تابع دي روسي في بداية مسيرته يعرف جيدًا أنه كان لاعبًا هادئ الطباع، لتزين ذراعه كلمات حارقة جاءت من قلب ينفث نارًا، قد أتلفته سيوف ورماح ملتهبة اسمها الخيانة: "روما، أنتِ عروسي وحبي الوحيد!" إشارة إلى فريقه أي سي روما ومدينته العتيقة.

أتمنى فقط بعد كل هذا الحديث أن تكوني قد عرفت ما أقصده تحديدًا يا فتاتي الثائرة، أما سوء الفهم الذي راودك في بداية الأمر فأرجو أن يكون قد اختفى الآن من عقلك نهائيًا وإلى الأبد؛ لأعود كما كنت في خيالك المُزيف، فارس الأحلام، والفتى الوسيم المنتظر.

نفاق النخبة

إذا انتابك الفضول في لحظة ما، وأردت أن تسألني مثلًا، أيهما أشد الفتنة أم القتل؟

بالتأكيد ستتوقع مني أن أتفلسف وأتحذلق، ماضيًا بك في دائرة مفرغة من الارتجالات المُبهمة تنتهي بإعطائك سببًا سفسطائيًّا يُرجح كفة القتل عن كفة الفتنة رغبة أن أبدو أمامك مختلفًا قليلًا!

بالطبع لا، سأجيب على الفور أنها الفتنة، وبمجرد أن يرتد إليك طرفُك، هذه إجابة لا شك فيها، أرجوك لا تدع تخمينك يحكم هنا، لأنك ببساطة ستخسر الرهان، هناك أحيانًا أسئلة بمثابة الثوابت لا يجوز النقاش والتفلسف في إجاباتها كعدد الصلوات مثلًا لا يمكن هنا الحديث عن زيادة فيها أو نقصان.

أما إذا سألتني أيهما أشد الفتنة أم النفاق؟ فاسمح لي بممارسة هوايتي المفضلة في التفلسف، بل سوف أستخدم في تلك المقالة لغةً وقور جدية بعض الشيء التي لا أعتاد كتابتها في مقالاتي، أعشق دائمًا مشاهدة دعاباتي السخيفة وفلسفتي السقيمة ساكنة بين السطور.

وفي حقيقة المسألة، الفتنة والنفاق هما وجهان لعملة واحدة، لا يمكنني القول هنا إن الفتنة أشد من النفاق، وليس من المقبول تمامًا الادعاء بأن النفاق أكثر خطورة من الفتنة، وذلك لسبب بسيط يجعل من الظلم التمييز بينهما في أي جانب من الجوانب، حيث إن كلاهما يتعلقان بصلاح المجتمع وسويته

وفطرته البيضاء، بجانب أن كليهما يتصلان بمفهوم الضِّرار الذي من شأنه الإخلال بقاعدة المجتمع، حيث لا مجال هنا لشوائب تطعن فطرته في مقتلها وتجوب فيه رائحة الفساد التي ستغزو الجدران قبل الإنسان فلا حديث هنا عن وطنٍ رفيع ذي شأن بين جميع الأوطان، ولا عن أمة هي خير أمم الأرض المعادلة في تلك الحالة تبددت أضلاعها وصارت مهيئة للسقوط العظيم.

والنفاق في معناه هو إظهار ما ليس في القلب وحديثنا هنا عن فئةٍ قبيحة تتجلى فيها كل معاني النفاق المقصود، نفاق النخبة.

أنت بصدد أناس يتلاعبون بمستقبل الوطن وأحلامه البريئة الوردية، فحين ترى هؤلاء على شاشة التلفاز ربما للوهلة الأولى تظنهم أشياء ثمينة، يكادون يرتقون درجة فوق مرتبة الإنسان، فاعلم أنك في هذه الحالة تقف على الجانب الخاطئ من البحر، لأن الصورة الحقيقية تحتوي على تفاصيل لو اقتربت منها فلن تروق لك كثيرًا.

العيون الوقحة التي تُظهِر شفقتها على الفقراء وتفيض منها الدموع ما هي إلا جحيم واسع يستطيع أن يحتوينا جميعًا، واللسان الذي يمضي مناديًا بحقوق الضعيف ستكتشف أنه عاصفة بإمكانها سحق الشعب عن بكرةِ أبيه، كل ذلك فوق جسد مترهل تخفيه حُلة أنيقة بآلاف الدولارات.

هم من ذلك النوع الذي يرى كل شيء قبيحًا، فاتنًا خلابًا، وفي اللحظة التي يتحدثون فيها عن حقوق الشعب بدموع مزيفة، كم تمنيت أن أضعهم جميعًا فوق فوهة بركان جرونجورو لحظة ثورانه المهيب، أو أن أُطبِق عليهم خطة إعصار المحيط التي سحق بها الأخوان شوقي الكابتن ماجد وفريقه.

هؤلاء ليسوا مستعدين مطلقًا لأي تنازلات، فهم ليسوا الجميلة جوديفا، التي جابت شوارع كوفنتري عارية كشرط من زوجها الجائر ليوفريك، وذلك لرفع الضرائب الباهظة عن طبقة البروليتاريا، الطبقة الكادحة من الشعب، حيث وضع الزوج الجائر ذلك الشرط مقابل الرحمة بالفقراء قائلًا لزوجته بتعالٍ: حسنًا جوديفا لو أردتِ أن أرحم هؤلاء الغوغاء والرعاع، فعليكِ أن تسيري عارية في شوارع كوفنتري وفي وضح النهار، في وضح النهار يا جوديفا، أظنك قد سمعتِ وفهمتِ الأمر! ليطلق بعدها ضحكات تبرز أنيابه فرحةً بالانتصار المنتظر.

إن الزوج الجائر يعلم أن تنفيذ ذلك الشرط لهو بالأمر المستحيل لتدور في عقله خاطرة تمنحه الطمأنينة والسكينة (جوديفا طفلتي الرقيقة بنت الكولونيل النبيل هل ستتجرأ على فعل ذلك! بالطبع لا لا، لقد أعطيتها الرمح في مقتل، انتصاري على جوديفا وهؤلاء الحثالة سيكون مسألة وقت!).

ولكن ذلك السبات ليس في قاموس الباحث عن الحق، الإجابة ستكون أكثر لباقة حينها، تردد جوديفا بقلبها النقي وبلسان حالها وذرات عقلها: إن كان ذلك سيجلب الرحمة لهؤلاء البؤساء فلم لا، افعليها يا ابنة الأثرياء!

يستيقظ الزوج صباحًا، يتفاجأ أن البيت خالٍ من زوجته الجميلة وتكاثرت على وجهه علامات الرعب وخوفه أن ما يدور في عقله هو الصحيح.

ثم سرعان ما تأتيه الخادمة مهرولةً وعلى محياها آثار من الارتباك والخوف من ردة فعل سيدها: سيدي، سيدي، مولاتي جوديفا...، فيرفع الزوج يده في وجه الخادمة إشارةً لها ألا تكمل حديثها، وبصوتٍ وتعابير يكظمان غيظًا كبيرًا، ويد مقبوضة مغروز أظافرها في جلدها قائلًا: اصمتي أيتها الخادمة أرجو أن تصمتي للأبد، أعلم ما تريدين قوله لي اللعنة عليكِ جوديفا، أي جريمة فعلتِها بحقك، هؤلاء الحثالة لا يستحقون منكِ ذلك!

وفي يوم مشرق ساطع، أعلنت فيه الشمس عدم الغروب، يكاد نور الشمس يظهر تفاصيل لم يعتد أحد رؤيتها، لتعلن الطبيعة انضمامها إلى جيشٍ ليوفريك، تدخل الفتاة الجميلة المدينة المشمسة بأزقتها المرصفة معتليةً حصانها الأبيض عارية تمامًا، شعرها الطويل اللامع يغطي أغلب جسدها، والألم والخجل يعتصران الفتاة العارية، الدموع تهبط بكثافة من عينيها محدثةً نغمة حزينة فور ملامستها الأرض.

لكن لاحظ معي، هذا شيء لا يصدقه عقل! إن جوديفا تسير وحيدة في شوارع المدينة ، فأين سكان المدينة وأهلها، أين عمال المخابز، أين أصحاب المقاهي، أين المارة من النساء والرجال، أين هؤلاء المراهقون المتسكعون بالسترات والقبعات السوداء، لمَ كل السيارات متوقفة على جوانب الطرق، أين المدينة بأسرها!

إنه لمشهد مرعب أن تشعر بأن المدينة بأفنيتها والأبنية الوردية الصغيرة منها والناطحة للسحاب قد غدت خالية من السكان، صوت سنابك الحصان الأبيض صار مسموعًا في كل أرجاء المدينة الهادئة، تُرى ما السبب وراء ذلك المشهد الغريب والمذهل!

السبب يعود ببساطة إلى أهل المدينة الأنقياء الذين قرروا أن يردوا الجميل لجوديفا الطيبة، عرفانًا بتضحيتها النبيلة، فأقرَّ قرارهم بأن يمتنعوا عن رؤيتها عارية، فكانت التعاليم واضحة بأن حياء جوديفا وجسدها هما القانون المقدس الآن فلا يجوز انتهاكه مطلقًا، وعلى سكان كوفنتري جميعًا أن يحترموا ذلك القانون.

وهذا ما حدث بالفعل لقد احترم كل سكان المدينة قانون جوديفا المقدس، فصار كل من يملك شرفةً مطلة على الطريق يغلقها جيدًا وبإحكام، وبالفعل لم يرَ أحد الفتاة الحسناء، وهي تسير عارية في حواري المدينة وشوارعها، إلا أن هناك وغدًا واحدًا اسمه توم القزم خياط سولت الماهر،

صار يتلصص خلسة خلف فتحة الشرفة الضيقة من منزله مختلسًا نظرة صغيرة على جسد الفتاة الحسناء، طرح قانون الحياء المقدس جانبًا وبطول ذراعه ونتيجة خرقه للقانون ينال القزم المختلس عقابه من الرب على الفور، لقد أصيب بالعمى الأبدي جراء طاعته للشهوة العمياء، وقبل أن يستمتع بنظرة صغيرة على جسد الفتاة.

ينتهي ذلك العرض التراجيدي والبطولي بخسارة ليوفريك، مخبرًا زوجته بصوتٍ هادئ تجتاحهُ نبرات التنازل: حسنًا جوديفا، لقد انتصرتِ، لم أتوقع منك ذلك قطُّ يا حفيدة النبلاء! فترد عليه الزوجة الصامدة مكتفيةً بابتسامة نصر أبرزت كل جمالها ومفاتنها.

وقد اضطر الزوج الفاسد في النهاية آسفًا تنفيذ وعده برفع الضرائب نهائيًا عن طبقة الفقراء من الشعب، وإذا كنت محظوظًا وسافرت إلى بلدٍ رائع مثل بلجيكا تتسكع في شوارعها الساحرة فلا تتفاجأ إن وجدت أن أكبر مصنع للشوكولاتة في البلاد يسمى مصنع "جوديفا" تخليدًا لتلك الفتاة الشجاعة التي ضحت بحيائها وخجلها من أجل حق البؤساء من الشعب، فلتذهب الشروط إلى الجحيم من أجل يهنأ البؤساء ويسعد البسطاء.

والآن هل ترى لهؤلاء المنافقين دورًا في تلك القصة؟ بالطبع لا، وإن أردت مجاملتهم في شخصية وأجبرتني على ذلك فسوف يكون بالتأكيد لذلك الخياط القزم مختلس النظر مكانة تليق به وبهم كثيرًا، فهؤلاء المنافقون هم من

ينادون بحرية الشعب والعدالة، يعلمون تمامًا أن تحقيقها بمثابة الكابوس الذي لن ينتهي، ولذلك فليس من المنطقي أن نراهم بين جدران دولة راقية متقدمة تحترم تراب الوطن قبل مواطنيه، كافرة أو مسلمة أو حتى في دولة يقدس شعبها شجر البلوط، لأن الدولة يمكنها العيش في تواؤم مع الكفر لكن ينبغي لها ألا تعيش وتستمر مع النفاق والظلم.

هناك أسباب عدة يمكن سردها أودت باندثار أمم وممالك وإمبراطوريات وقبائل ومحوها، وبالطبع فإن هؤلاء المنافقين في مقدمة الأسباب.

الدولة العثمانية تلك الإمبراطورية مترامية الأطراف التي تقوضت، وانتُزعت منها جميع أذرعتها وصارت مشلولة وعاجزة إلى أن سقطت سقوطًا ليس بعده نهوض قد نستطيع حصر تداعيات عدة أدت إلى سقوطها، لكن اعلم أن هؤلاء لا يمكنهم أن يتعدوا السبب الثالث على أقل تقدير، وهذه نقطة لم تتعدها السينما العالمية في أفلامها عن سقوط الممالك والإمبراطوريات، فقد شاهدناه واضحًا جليًّا في فيلم سقوط طروادة الذي كان سببه الأول أمثال هؤلاء من المنافقين الذي تمثل في وزيرٍ من وزراء الملك.

بالطبع كل من تمعن في مشاهدة هذا الفيلم التاريخي يعرف ذلك جيدًا، ففي أحد مشاهد الفيلم، مشهد اجتماع الحرب تحديدًا، وبينما كانت الآراء جميعها تميل إلى عدم شن حرب على الأسبرطيين الذين كانوا قاب قوسين أو

أدنى من الانسحاب، والعودة بأذيال الخيبة إلى ديارهم، يرفع أحد الوزراء يديه طالبًا أن يلقي برأيه في مسألة القيام بالحرب أو الاكتفاء بالنصر الذي تحقق.

أومأ الملك إيماءة خفيفة تحاذي كثيرًا وضعيته الملكية بالموافقة بأن يرمي برأيه في ساحةِ البلاط الملكية، وما كاد الملك ينتهي من إشارة الموافقة حتى قال الوزير أمام الجميع: "لقد جاءتني يا سيدي رؤيا في منامي ليلة أمس وأردت إخبارك بها، لعلها تكون هي القرار الحاسم في ذلك الاجتماع، لقد رأيت يا مولاي نسرًا غاضبًا يهبط على الأرض بسرعة البرق، ثم التقط بمنقاره الحاد ثعبانًا ضخمًا وسرعان ما حلق به عاليًا نحو السماء، وبعد أن فرغ من التهام الثعبان الضخم عن آخره التفت نحوي قائلًا أخبر مولاك أن يخرج للحرب فالنصر والخلود في انتظاره!".

ثم وجه سؤالًا لملك طروادة قائلًا: أتدري يا مولاي الملك ما النسر، وما الثعبان الضخم اللذان رأيتهما في منامي؟

فيجيبه الملك: لا، ثم أردف متسائلًا لوكنت تعلم أيها الوزير فلم لا تخبرنا؟

قال الوزير: إن ذلك النسر يا سيدي هو الإله أبولو أما الثعبان هو جيش أسبرطة المهزوم.

وبعد سماعه هذه الرؤيا وتفسيرها لم يجد ملك طروادة مفرًّا من إعلان الحرب التي كان من أشد معارضيها أميرهم الشجاع هيكتور الذي يرى أن الأسبرطيين قد تلقوا درسًا مؤلمًا لن يرغبوا في تكراره أبدًا.

بكل تأكيد كلنا نعرف ماذا حدث بعد ذلك بداية من إعلان الحرب مرورًا بفخ حصان طروادة، وختامًا بسقوط المملكة العتيدة التي استعصت على جميع القوى العسكرية من قديم الأزل، وظلت مملكة حصينة إلى أن جاءها هذا الوزير، الرمز المستحق والتميمة الأصيلة لمصطلح نفاق النخبة، فإن كان هذا ما يفعله نفاق النخبة في الممالك والإمبراطوريات العظيمة فما بالك بدولة نامية ما زالت تتحسس بصيص التقدم والتطور، حيث إن أعمدة البلاد النامية حين لا تزال خضراء، لا وقت لوجود أمثال هذه النوعية في تلك المرحلة، إذ بوجودهم تنمو الأعمدة مشوهة وفي أحشائها شوكات النفاق لا سقوط ولا استقامة، ثم تأتي الأجيال التي ترغب في تشييد مستقبلها المنشود فوق الأعمدة المشوهة، فتتصدع أعمدة البنيان محدثةً تبعاتها سقوطًا عظيمًا تلقي بالأمة أسفل الهاوية غير مأسوف عليها.

وربما تنفي حديثي هذا مبررًا بذلك أن هؤلاء المنافقين قد تشاهدهم في دول كبرى، وبالرغم من ذلك تظل تلك الدول هي كيانات عظمى ومصائر كثير من البلدان تحت يديها، إذن، ألم يعيقوا قطار التقدم فيها؟

حسنًا، سأجيبك بمثل بسيط وهو حين تغزو الإنفلونزا جسد الفتى اليافع فليس هناك مدعاة للقلق، ولكن الوضع يختلف لو أصابت الإنفلونزا شيخًا طاعنًا تعدى التسعين من عمره فشتان هنا بين اضطراب اليافع واضطراب الشيخ.

فهؤلاء لا يبالون لتحقيق مصالحهم بل هم مستعدون نظير مصالحهم البالية سحق أي عائق يعترضهم، تراهم يشوهون القدوة كي يمضي الشعب دون منبع يرتشفون منه رشفة الفكر الصحيح والحكمة والموعظة الحسنة، ينسفون أمجاد الأجداد ليقيموا مكانها أصنامًا صنعتها نفوسهم البالية والقبيحة.

وهذا هو صميم النفاق المقصود في معناه، ففكرة الكذب المطلق لا تعني أن يكون صاحبه منافقًا في كل الأحوال بل حينما يكون الكذب مقصودًا به إضلال الناس، والإصرار على خداعهم وطمس الحق في قلوبهم وإظهار الباطل للرعية بثوب الحقيقة، لذلك ساوى الله بين النفاق والكفر وأخبرنا في آياته أن المنافقين والكافرين كلاهما في قاع جهنم خالدين فيها.

وبخصوص القدرة على معرفة هؤلاء مهمة ليست بالصعبة، ففي شاشات التلفاز تراهم دومًا يظهرون بوجوههم القبيحة لا يبالون بإظهار غناهم الفاحش أمام الفقراء من الرعية.

حديثهم تراه الحديث نفسه؛ كلماتهم هي الكلمات ذاتها وكأنهم يتفقون على الأحرف قبل العبارات، مخرجين لنا معزوفة مكتومة لا يسمعها غير المنافقين من الشعب تهتز على إثرها بطون العاهرات والجواري وعبيد المال وما أكثرهم في هذا الكون المترامي! يزيفون الحق، ويحرفون التاريخ، ويدمرون القيم، ويُخفون احتياجات المجتمع الأساسية التي من شأنها دفع المجتمع إلى طريق التطور وذلك عن طريق طمس قضيته ومشكلاته الواقعية، وإعطاء الباطل لونًا رماديًا ساحرًا يبهر ضعاف القلوب أمثالي!

لذلك هم دائما يسعون إلى الاختلاف حتى وإن كان ذلك الاختلاف سوف يضعهم في الجانب الأسود للمجتمع.

الأمر كأن يرتدي الجميع الأبيض في عزاءٍ ياباني فيرتدون هم الأسود كي يظهروا مميزين، لكن بنظرات من الازدراء والتحقير، أو أن يعتاد الناس ختم القرآن في نهاية شهر رمضان، وأنت قد انتهيت لتوك من ختم رواية من روايات فيكتور هوجو الرائعة بلا شك.

حتى حبهم للحيوانات على سبيل المثال تراه حبًّا مختلفًا غير مألوف؛ فتراهم يعشقون الفقمة، ذئب تسمانيا، النسر الأمريكي حيوان الكوالا اللطيف أشياء من هذا القبيل!

دعك من أن ذئب تسمانيا انقرض قبل أن يولد الجد الثالث لهؤلاء لكن الأمر كما أخبرتك يكمن في شهوة الاختلاف، شهوة التمرد والخروج عن المألوف.

الشيء الذي لا بدَّ أن تعرفه هو أنهم يراعون دائمًا أن يجعلوا دائرة الاختيار حولك ضيقة جدًّا بحيث تمضي بإرادتك وعقلك إلى ذلك الطريق الذي رسموه، وما عليك إلا أن تلهث خلفهم تهليلًا وتصفيقًا، كون العرض مغريًا لك كثيرًا، ونصيبك من فُتات الذهب والجاه ستناله بالتأكيد.

أما وإن أردت ارتداء قناع الغضب والتمرد عازمًا على تطبيق المبادئ والقيم والسير خلف ابن عروة المجنون مرددًا بكل قوةٍ أنك في انتظار الحُسين غير مكترث بغضب اليزيد وخبث ابن زياد، فاعلم أن حتفك من فوق القلعة أمر لا شك فيه.

هكذا يكون الوطن في حقبة هؤلاء، هكذا تكون مصائر البلدان في يدٍ لا تعرف سوى السلب وكتم أنفاس الحق حتى تُزهق.

الفساد والدمار والطغيان، يسكنون أمكنة كثيرة، بالتأكيد هم أسطع أسبابها وأبرزها على الإطلاق.

كيف نتخلص من هؤلاء؟

ما يدور في ذهنك الآن هو متى سيكُف أفلاطون زمانه عن هذه الثرثرة، ويخبرنا عن حل نتخلص به من هؤلاء، فلا بدَّ أن يكون هناك حل لتلك المعضلة الصعبة والمعقدة للغاية.

وفي الحقيقة وبصفتي خبيرًا في جميع المجالات أستطيع القول إنني لا يمكنني وضع أي حلول حتى وإن كانت مؤقتة، وحديثي عن خبرتي في جميع المجالات لهو نوع من الكذب التجريدي ذلك الذي يشبه أنا لا أكذب ولكني أتجمل!

وإن كنت مجبرًا على ذلك، وأراك ماكثًا عند باب بيتي، وقد أقسمت أنك لن تتحرك خطوةً واحدة ولن ترحل إلا بحل يقنعك تأخذه وترحل فسوف أضطر آسفًا اللجوء إلى الاقتباس والاستعارة من التراث والإرث القديم فكما أخبرتك أنني لا أملك حلولًا نتخلص بها من هؤلاء، خبرتي الصغيرة في هذه الحياة لا تسمح لي أن أصنع لك حلًّا ينبع من وحي عقلي.

أنت بهذا الطلب تريد مني أن أتعملق وأصبح رجلًا ممزوجًا بخبرة العقاد، وحنكة خالد بن الوليد في الحروب ودهاء رومل وقوة حمزة بن عبد المطلب وعلم ابن الهيثم وعقلية روبرت وينستون، وحكمة سقراط وفلسفة الغزالي، وأسلحة مازنجر المدمرة.

ما تطلبه في مواجهة هؤلاء يتطلب شخصًا يحمل كل هذه الصفات، أي أن يكون باختصار الرجل المستحيل!

لكن مع الأسف كل هؤلاء لا يمكننا أن نستعين بهم لأنهم جميعًا رحلوا عن عالمنا ولم يبقَ منهم على قيد الحياة سوى المقاتل الآلي مازنجر، هو الوحيد القادر على إبادتهم جميعًا بواسطة القبضة المدمرة أو الأشعة الحمراء التي سوف تُذيب أجسادهم كذوبان الثلج إثر تعرضه لحرارة الشمس الحارقة.

لكن تمهل قليلًا، لا تكن متفائلًا لهذه الدرجة مازنجر يا صديقي ما عاد مازنجر الذي كنا نعرفه بقوته وسحقه لجميع أعداء الفضاء ورفقاء أبو الغضب الشرير، لقد أصبح الآن بعد زواجه من أفروديت آليًّا أليفًا يتغذى على البندق والفواكه بأنواعها، أما أفروديت فأصبحت زوجة خائنة بل تخونه مع جميع وحوش الميكينز الجبناء، لذلك ففكرة الاقتباس هي الحل الأمثل صدقني؛ فالاقتباس سيكون من فيلم إنجليزي عتيق رأيته صدفة في حين كنت أشاهد بعض الفيديوهات على اليوتيوب فدفعني الفضول إلى مشاهدته خاصة أن اسم الفيلم كان مثيرًا وجذابًا للغاية فقررت مشاهدته كي أعرف عن أية قصة يحكي وأية قضية يتبناها، بالرغم من أنه لم يرق لي على الإطلاق، حيث إن أغلب الممثلات في هذا الفيلم كنَّ أكثر حشمة في ملابسهن، وهذا بالطبع جعل الفيلم في رأيي غير مغرٍ لي نهائيًّا.

الفيلم الإنجليزي الذي سوف نقتبس منه الحل الأمثل للخلاص من هؤلاء المنافقين يُدعى "رجل الخيزران"، تحكي قصة الفيلم باختصار عن أهل قرية نائية بسطاء وثنيون لا يؤمنون بالأديان، تارة يعبدون الشمس وتارة

يعبدون البحر، وحين تأتي أوقات أعيادهم الدينية يتطلب أن يقدموا أحد الأشخاص قربانًا إلى الآلهة، عن طريق وضعه في هيكلٍ عملاق يمتلك رأسًا وأقدامًا طويلة ضخمة آخذًا في النهاية شكل إنسان.

وبعد توثيق الضحية بالحبال جيدًا يتم إشعال النار في الهيكل العملاق، لتحترق الضحية فتصبح قربانًا تقبله الآلهة ويعُم الخير أرجاء القرية الفقيرة.

إلا أن الأمر لا يتم عبثًا، فهناك شروط لا بدَّ من توافرها حتى يصبح القربان مقبولًا وصحيحًا وهو أن يكون الشخص المقدم كقربان غير متزوج سواء كان رجلًا أو امرأة.

والآن ما رأيك إن قمنا باستيراد شحنة كبيرة من الخيزران، ثم نقوم بعد ذلك بتصميم هيكل ضخم يأخذ شكل إنسان أو حمار لا يهم، الأهم هو أن يحتويهم جميعًا، ثم نستدعي هؤلاء المنافقين بداعي احتفال كبير مصحوب بتوزيع الذهب في نهاية الاحتفال، وهذه النقطة سوف تغريهم كثيرًا وستجعلهم يأتون مهرولين ومُنكبين على وجوههم، ثم بطريقة ما نستدرجهم داخل جوف عملاق الخيزران وبإشارة معينة نتفق عليها مسبقًا يتم البدء بإضرام النار في الهيكل العملاق، وبالتالي نتخلص منهم جميعًا، فما رأيك في هذا الحل؟ أظنه سوف يلقى استحسانًا كبيرًا منك، لكني أرى على وجهك علامات الغضب وكأن ذلك الحل لم يرضك ولم يقنعك!

أعلم أن ذلك الحل يبدو عنيفًا قاسيًا، ولكن عليك أن تعلم أن هؤلاء المنافقين الفاسدين يستحقون أكثر من ذلك فلا شيء أكثر رعبًا من أن تكون منزوع الأحلام والمستقبل، هؤلاء لا يبالون في سحق أحلامك تحت أقدامهم إن وقفت لحظة في طريقهم، هم من تلك النوعية التي تتغذى على الضوضاء، بارعون في خلق العبث بكل أشكاله.

ولأن الأمر يعود إليك في النهاية، وأنت صاحب القرار وما دام ذلك الحل لا يرضيك، كونك ببساطة شخصًا طيبًا تملك قلبًا نقيًّا يجعلك تشفق على هؤلاء الأوغاد من جحيم النار، فسوف أخبرك الآن عن حلٍّ آخر قد يرضيك، وبالإضافة إلى ذلك سيكون حلًّا منطقيًّا إلى حد كبير، وسوف أستعيره من الدكتور رفعت المحجوب رئيس مجلس الشعب الأسبق رحمه الله حين كان يلقي محاضرة في إحدى الندوات، وكان موضوع الندوة يتمحور حول مفهوم القدوة وثقافة الشعوب قائلًا "إن كل شعب يستنبط ثقافته وعلمه من علماء وحكماء، كانوا شريانًا لمعرفتهم حتى صاروا المنبع والمصدر والقدوة يهتدون بها في علومهم وأحكامهم على طراز معرفة سقراط في اليونان.".

وهنا سُئل الدكتور المحجوب السؤال الذي لم يكن يرجو سماعه قطُّ "ومن قدوتنا يا دكتور الذي نستطيع أن نجعله مرجعًا ومنبعًا لنا في ثقافتنا؟".

يجيب الدكتور -رحمه الله- قائلًا بهدوءٍ وابتسامة خرساء ساخرة:

"المنبع والشريان الذي يمكنني أن أصفه بالقدوة في تلك البلاد هي (الفهلوة)" ثم صمت بعدها ولم يُعقب على إجابته.

وفي واقع الأمر ما قاله الدكتور المحجوب يمكننا بالفعل رؤيته وسماعه في هذا الزمن وفي ذلك العصر فبإمكانك أن ترى الجاهل وقد أصبح فيلسوفًا يفرض النظريات ويصدر الكتب والمؤلفات، وما هي إلا أيام قليلة ويتَحصل على الماجستير من جامعة أوروبية مرموقة، بالإضافة إلى أنه صار ضيفًا معتادًا مرحبًا به في كل القنوات المرئية والمسموعة، وربما يعتبرونها خسارة فادحة لا يمكنهم تعويضها إن لم يتم استضافته كي يستفيد المشاهد والمستمع من تجارب هذا العلامة صاحب العقلية الفذة وآرائه، وذلك المعتوه الذي لا يستطيع قراءة القرآن بأحكامه قد أصبح يصدر الفتاوى ولديه القدرة الفريدة في معرفة من سوف يدخل الجنة، ومن سيكون الجحيم مستقرًا له ومقامًا طويلًا.

ويمكنك على سبيل المثال قراءة خبر عاجل في أول صفحة في الجريدة، يقول إن الشرطة تمكنت بنجاح من القبض على ممرضٍ انتحل وظيفة طبيب لمدة ثلاثين عامًا ولم يفتضح أمره طيلة تلك المدة!

وبعد صمت ليس بالقصير، يأتي أحد الطلاب ويكسر صمت الدكتور المحجوب متسائلًا عن حلٍّ لتلك المعضلة الغليظة: هل هناك حل أيدولوجي أو فسيولوجي أو على الأقل سطحي، والأكثر أهمية من ذلك هو أن يكون الحل في نهاية المطاف منطقيًّا؟

فيأتي رد الدكتور رفعت المحجوب رحمه الله وكان ردًّا قاطعًا حاسمًا لبعض الحضور وكوميديًّا لبعضهم الآخر حيث قال الحل أيها الشباب هو "التيه الكبير"، والمقصود بالتيه الكبير الذي لفظه الدكتور محجوب واعتبره حلًّا حاسمًا عقاب الله لقوم موسى على من خالفوا أمره وعصوا أمر الله وأشركوا به، إذ أقاموا عجلًا له خوار وكأن ذلك الصوت هو صوت الرب، فعبدوا العجل وسجدوا له من دون الله فعاقبهم الله بالرمي والتيه في الصحراء دون الوصول إلى نهايتها طيلة أربعين عامًا.

ثم عاد الدكتور المحجوب رحمه الله إلى صمته ولم ينبس بشيء للحظات، عدا عبارة جعلها ختامًا لموضوع الندوة صوبها في وجه كل الحاضرين: "صدقوني هذا هو الحل الوحيد!".

وفي الحقيقة أرى حل الدكتور محجوب رحمه الله وإن كان حلًّا عنيفًا بعض الشيء، إلا أنه رائع للغاية وممكن نظريًّا بالنسبة إلى أرض الواقع نظرًا إلى بعض العوائق التي تعتري الخطة الأولى من الفيلم الأجنبي التي تتعلق ببناء عملاق من الخيزران ومن ثَم نضع في جوفه المنافقين من النخبة، إذ تبدو غير مقنعة لأنني لا أعلم ما الخيزران من الأساس، كما أن شرط أن تكون الضحية غير متزوجة من شأنه أن يقلل ويُحجم من أعداد هؤلاء كثيرًا، فما الذي يمنع هؤلاء من الزواج! فهم غير مرتبطين بميعاد قبض جمعية وفق

تاريخ محدد وسنة بعينها ويوم معين، بل يكاد مرتبهم الشهري يعدُّ جمعية في حد ذاته!

وبمقارنة الفكرة الأولى بفكرة الدكتور المحجوب رحمه الله نجد أن الفكرة الثانية مقبولة وغير صعبة، ولا يعتريها أي تعقيد، بالإضافة إلى أنها ليست مكلفة ولن تتطلب الإنفاق المادي في سبيل التخلص من هؤلاء وذلك عن طريق حل سحري وهو تسريح زمرة المنافقين في الصحراء الشاسعة حتى تستريح منهم البلاد والعباد!

وأنا أعلن من موقعي هذا أن من يرى حلًّا غير التيه الكبير ورجل الخيزران فليخبرنا ويراسلنا حيث من المتوقع أن يكون هناك حل نجده في عقل أحدنا، في انتظار إجابة منكم جزاكم الله خيرا.

أنت مختلـف

لا بد أن تعلم جيدًا أنك تمتلك صفات ومواصفات لا أحد يمتلكها غيرك في هذا الكون بأجمعه، هل تعتقد أن وجهك منزوع الملامح هذا، الذي لا يخبر عن أي شيء بإمكانك رؤيته مكررًا في وجه شخص غيرك؟

فلتعلم أن هذه قاعدة ثابتة ينبغي لك عدم النقاش فيها؛ فكل شيء فيك يثبت اختلافك عن بني جنسك جميعهم، فعيناك تختلفان، وجسدك يختلف، وشعرك الكثيف المتشابك يختلف، صلعتك اللامعة تختلف، طريقة مشيتك تختلف، عقلك يختلف، وأخلاقك تختلف، عشقك لأبيك وأمك يختلف، الكتب التي تعتاد قراءتها تختلف، نظرتك للحياة نفسها بكل تأكيد تختلف!

بجميع الأرقام الرومانية والهيروغليفية أهنئك يا صديقي العزيز أنت مختلف، فأنت لست سنبلة قمح كي تكون متشابهًا مع غيرك وإن كان الأمر سوف يبدو كوميديًّا للغاية!

تخيل نفسك ذلك الفتى الوسيم الأنيق في ملابسه الذي تبكي من أجله الفتيات، يصبح مجرد سنبلة قمح تتحول بعد قليل إلى حبةٍ في طبق بليلة لذيذ بين يدي رجل ذي بطن مترهل سرعان ما يلتهمك لتمكث في بطنه للأبد.

ولكن إن كان ذلك الاختلاف بين ملايين البشر يسمى إعجازًا، فسوف يتلاشى نهائيًّا حينما تعرف أن من فعل ذلك هو الله القدير جل جلاله وليس ورشة الأسطى زينهم وأولاده الموجودة آخر الشارع.

ولكونك مختلفًا عن الناس في كل شيء فإنه لا يمكن أن تضع نفسك مقارنة مع أحد مطلقًا، ذلك لأن الله منحك تفاصيل وصفات لا يملكها ملك من الملوك أو سلطان تمتد مملكته أطراف الأرض لكنك تُكسبها بإرادتك عيوبًا وأفعالًا غير رائقة تمامًا ليظهر الاختلاف في نفسك من الداخل واضحًا للغاية؛ فاللسان الذي تراه يسُب ويلعن قد تراه في مشهدٍ آخر يذكر الله ويلقي السلام عليك في سكينة وهدوء، واليد التي تُرفع لتبطش في وقت الغضب قد تجدها تُمَد لمساعدة الفقير وإعطاء الصدقة إلى المحتاج، والعين التي تشبه عين الذئب ويخرج منها نار عشتار قد تتفاجأ حين تراها بدموع غزيرة وبراءة الطفل تطغى على أجفانها.

الخلاصة من ذلك أن الله خلقك مختلفًا متفردًا في كل الصفات ولأنه يعرفك دائم التذمر والتساؤل وكما يقول الكتاب العظيم "وكان الإنسان أكثر شيء جدلًا"، فقد أرفق في داخلك بجانب كل هذه النعم نعمة الرضا، على كل نعمةٍ منحك الله إياها.

وفي حقيقة الأمر إن حديثي عن اختلافك هو مجرد جانب من جوانب هذا المقال وليس صلب الموضوع من الأساس، شئت أم أبيت أنت مختلف، وكما أخبرتك سابقًا هذا قدر لا يجوز لك النقاش فيه.

أما صلب الموضوع ولُبُّه فهي ضريبة تلك النعمة، أتحدث عن ثمن الاختلاف الذي تدفعه في حياتك، في عملك، في مدرستك، جامعتك، قريتك،

وفي منزلك ذاته، فمن المحتمل أن مشاكلك الدائمة في العمل قد تحدث لأنك مختلف، مشاجراتك مع أصدقائك في الجامعة قد يكمن سببها الحقيقي في اختلافك عنهم، الخير الذي تقدمه لوجه الله ولا تريد منه جزاء ولا شكورا ثم يُقابل بضغينة وحقد، وتعلو الأقاويل أنك بذلك ترجو منصبًا أو جاهًا أو شعبية، كل ذلك يحدث لأنك مختلف، والسبب في ذلك هو أن المكاييل عندك تختلف أوزانها وكفاتها عن مكاييل الآخرين، حتى طيبتك التي جعلت منك مسخًا تعيسًا ما هي إلا ضريبة من ضرائب الاختلاف، ترى الحقيقة تقال لك آلاف المرات وبطيبتك وسماحتك تجزم أنها زلة لسان لا أكثر، كل ذلك يحدث لأنك ببساطة رجل مختلف.

إن المجتمع يأبى أن يراك مختلفًا، تراه يهمس في أذنيك أنت في بؤرتنا السحيقة، أنت مثلنا لا يمكنك الخروج، وإن تمسكت باختلافك فأنت لا تعدو سوى مجنون أو قد يصل الأمر إلى وصفك بالخائن.

وإن لم تكن تظن أنك مختلف عن بقية البشر وترى أن هناك رجلًا يشبهك في قبيلة ما أو حتى في عالم مواز لذلك العالم، مستبعدًا أن يكون للاختلاف ضريبة عليك أن تدفعها في حياتك، إذن فاتركني كي أقص عليك قصة قد تخبرك بما أرغب في توضيحه، هي قصة قصيرة، وبالرغم من أنها قصة أسطورية إلا أنها تعد تحفةً من تحف الأديب الكبير "جورج ويلز" وهي إحدى أشهر قصصه على الإطلاق، وتحتل مكانة بارزة في الأدب بصفة عامة خصوصًا

تلك الأعمال الأدبية التي تتحدث عن العُمي والمكفوفين بصفة خاصة.

يتجلى في تلك القصة المثيرة كل معاني الاختلاف الذي أعنيه، وما قد تجنيه من عواقب وخيمة وغير متوقعة تجاه اختلافك المحتوم، لتجد نفسك أمام خيارين، إما التسليم كالبقية فتهنأ بحياة هادئة، وإما رفع راية العصيان وحينها لا تتساءل عن النتائج، وإن كانت القصة في أصلها لا تخلص في حديثها عن الاختلاف لكن كما أخبرتك في أولى صفحات الكتاب بخصوص مراعاة الأسلوب الخاص للكاتب الذي من شأنه تسخير أي قصة لفكرته لذلك إن قمت بالاطلاع على أصل القصة فلا يمكنك أن تلحظ أن هناك شبهًا ولو بسيطًا في التفاصيل أو الأحداث، والمصطلحات والحبكة الدرامية بجانب إضفاء نوع من الواقعية في التشبيهات والأماكن احترامًا لعقلية القارئ، علاوة على أنني أملك أسلوبًا مغايرًا لأسلوب جورج ويلز وليس ذلك مدعاة للفخر أو شيئًا من هذا القبيل لكن لأني في النهاية دائم الإيمان بفكرة الاختلاف.

على بعد أميال من جبل تشيمبورازو، وخطوات من جبل كوتوباكسي المكسو بالجليد وسط البراري الشاسعة الراكدة على حافة جبال الإنديز، يمكنك رؤية ذلك الوادي السحيق الغامض بعض الشيء الذي يسكن فيه أبطال قصتنا "العميان"، وهم مجموعة من الشباب والفتيات والشيوخ الثائرين هربوا خوفًا من طغيان ملكٍ ظالم، وبطش الجنود قتلة السافكين للدماء يلجؤون إلى هذا المكان الغامض ويستقرون فيه بعض الوقت ريثما

يكف الجنود السفاحين عن ملاحقتهم.

والغريب أن الجنود المسلحين كانوا على شفةٍ منهم وتحت أقدامهم ببضع مترات، لكنهم لم يتخيلوا أبدًا أن يكون هؤلاء العصاة قد اختبؤوا في هذا الوادي المظلم والمخيف! ومن المؤكد أن أغلب سكانه من الجن والشياطين، فهو عبارة عن فجوةٍ مربعة مظلمة في باطن الأرض، يحاصرها جيش كبير من الحشائش الطفيلية، يتخللها بعض النباتات المتعرشة، ونزر يسير من الشجيرات ذات الأغصان المتشابكة، ويظهر في ساحته أعشاب باهتة اللون ومنتصبة حتى بدت أمامهم كالأشواك، من المستحيل أن يكون هؤلاء قد اتخذوا هذه الساحة المخيفة ممشى لهم عدا بعض أشجار البرتقال التي لم تكن على قدر من الأهمية لتجعل هؤلاء المجندين يغيرون نظرتهم الجامدة تجاه هذا الوادي، وبعد أن تمعن الجند هذا المكان المظلم، وبعد أن شاهدوا أبعاده ومعالمه المخيفة، قرروا الانصراف مرددين لا يمكن لهؤلاء الجبناء الاختباء هنا بل يكاد يكون مستحيلًا، إنه ليس مكانًا بشريًا على الإطلاق، فمن الحماقة أن نقرر البحث عنهم في هذا المكان الذي يصلح فقط لمصاصي الدماء والمستأذبين، حتى شبح الكاسبر بالرغم من أنه شبح لكنه سوف يفر هاربًا لو دنا من هذا الوادي، وعلى إثر ذلك قررت المجموعة الهاربة المكوث هنا طويلًا حتى يرحل الأسبان عن أرضهم، وبطريقة ما ينتشر مرض أصاب عيونهم جميعًا بالتهابات حادة، وبصورة تدريجية صاروا يفقدون البصر واحدًا تلو الآخر إلى أن أصبح

جميعهم عميانًا، فتوارثته أجيال تلو الأجيال حتى أصبح البصر أسطورة غير مذكورة في ذهنِ سكان ذلك الوادي.

وظلوا ماكثين في هذا الوادي أبد الدهر، ولم يفكروا في ترك الوادي نهائيًّا، ليصبح ذلك الوادي بعد أزمان متعاقبة بمثابة سجنٍ كبير حتى صار بالنسبة إليهم هو العالم الذي لا يعرفون عالمًا غيره إلى أن جاء لهم بطل قصتنا الثاني الفتى اليافع نيونز.

نيونز، شاب متحمس عاشق للمغامرات، يهوى تسلق الجبال المرتفعة والخطيرة وصار بعد سنوات من امتهانها خبيرًا بها، ثم يأتي يوم تنزلق فيه قدماه في خلال ممارسة هوايته المعتادة بتسلق الجبال فتهاوى من أعلى قمة وصل إليها نحو أرض شديدة العمق، لكنه كان محظوظًا للغاية حيث سقط في بحيرة ليست عميقة حفظت حياته وأنقذته من الموت.

وعندما بدأ المشي بحركة مترنحة وجسدٍ متألم وملابس مبتلة رأى منازل ومباني غريبة الأطوار كثيرًا، ولاحظ أن لون تلك المنازل أسود حالك لا يخالطه أي لون آخر!

هنا خمن أمرًا في عقله وهو أن من بنى هذه البيوت ما هو إلا خفاش أو رجل أعمى بالتأكيد، لا يمكن لإنسان يملك بصرًا أن يكون فقيرًا من الناحية الفنية لهذه الدرجة.

وحين رأى الفتى المترنح نيونز أصحاب هذه القرية لم يكن بإمكانه التحرك، فراح يشير إليهم تارة بيديه، وتارة أخرى يشعل قداحته حتى تلتفت أنظارهم إليه لكنهم لم يبالوا، وهنا تأكد نيونز أنهم عميان فعلًا، إذن هذه هي بلد العميان الذي كان يسمع عنها، قائلًا بوجهٍ مشدوه: يا إلهي لم تكن هذه القصة أسطورية كما أخبرني معلمي في المدرسة! ريثما أعود إلى الديار سوف أخبر المعلم أن القصة التي كان يظن أنها أسطورية، هي حقيقة بالفعل لا سيما حينما أعزز حديثي عنهم ببعض الصور الفوتوغرافية ليتذكر على الفور كاميرا التصوير الخاصة به التي تفاجأ بأن مياه البحيرة أتلفتها.

في هذه اللحظة وبمجرد التأكد من أن هؤلاء القوم عميان بالفعل، تيقن نيونز أنه مختلف فعلًا، وأحس أن باستطاعته أن يكون ملكًا على هؤلاء العميان بفضل اختلافه عنهم في نعمة البصر، ثم راحت تحدثه نفسه: أنت الوحيد هنا من تملك البصر، لقد جئت إلى المكان الصحيح يا نيونز، اختلافك هذا سيصنع منك ملكًا من الملوك، أو ربما تجتاح العالم يومًا بهؤلاء المتوحشين العميان.

وبرغم ثقته الشديدة في ذلك إلا أن هناك مشكلة لم تأتِ في ذهن نيونز وتساؤل غير منطقي كيف يثبت لهم أنه مختلف عنهم، فهم لا يعرفون معنى البصر من الأساس!

لكنه لم يشعر أن فكرة إقناعهم بالأمر الصعب فهمس لنفسه "ما هي إلا لحظات ويدركون ماهية البصر، وبعدها أصبح حاكم تلك القبيلة، أنا الذي

سيأمر وينهى هنا، هذه فرصتك التي منحها لك الرب يا نيونز، عليك فقط أن تكون صبورًا مؤمنًا بفكرة اختلافك، ومؤمنًا بهبةٍ لا يملكها إنسان في تلك البقعة المظلمة سواك أنت يا نيونز!".

لكن نيونز قد فعل ما كنت أخشاه، لقد نظر إلى شطر القصة السعيد التي من شأنها أن تجعله ملكًا بسبب اختلافه عن كل العميان، ولم يدرك أن اختلافه ذاك سوف يكلفه ثمنًا ثقيلًا للغاية ولن يتحمل الضريبة مطلقًا، فإن كان هؤلاء القوم محرومين من البصر لكنهم يمتلكون البصيرة، ويمتلكون عقلًا يمنحهم مهارة الجدال حتى ولو في خطأٍ ساطع كالشمس.

راح يحكي لهم عن جمال الجبال وقت غروب الشمس وصفاء السماء الهادل وكانوا يصغون إليه باستغراب وبنوع من الشفقة على عقله المفقود!

يقرر نيونز بدهائه العقلي الضعيف أن يثبت لهم أهمية البصر وماهيته، وذلك عندما رأى صديقًا من القرية تعرف عليه خلال فترة إقامته، وكان قادمًا من بعيد فقال لهم: صديقي جون سيكون هنا بعد لحظات، هو قادم نحونا الآن، أنا أراه وأنتم لا ترونه، أنا أشاهده بعيني وأنتم لا تشاهدونه، ألا يمكنكم اشتمام رائحته؟ قالوا: بلى.

فقال نيونز: حسنًا، أنا أراه لأنكم لا تملكون البصر، فهل فهمتم الآن ما أقصده، أتمنى أن تكونوا الآن قد عرفتم أنني من كنت على الصواب!

بدا عليهم الشك وراحوا ينتظرون قدوم الفتى القادم كما أخبرهم نيونز، وظنوا لوهلة صغيرة أنه صادق، ولسبب ما ولحظ نيونز السيئ العاثر، قرر صديقه الأعمى جون تغيير مساره ويبتعد، ليدمر كل قواعده التي أنشأها لتوه.

لكن نيونز كان رجلًا ذا إرادة فولاذية، لم يستسلم فحدث نفسه "أنا مختلف، أنا هنا الشخص المميز ببصري سوف أقود هؤلاء العميان وأحكم هذا العالم!".

وراح يحكي لهم الأحداث الجارية في القرية التي لا يمكنهم رؤيتها، فهناك طفلة صغيرة تلعب، وهذا طفل يبحث عن أمه، وهذه شجرة تطرح البرتقال، والشمس قاربت على الغروب، يمكنكم الشعور الآن بقلة الدفء، هل تشعرون؟

قالوا: نعم.

فضحك قائلًا بزهو: حسنًا، لقد اقتربتم من فهم قصدي وما أريد إثباته لكم.

وحينما لاحظ العميان أن الشاب قد فرغ من حديثه طلبوا منه بسخرية لا تخلو من الامتعاض أن يحكي لهم ما يحدث بداخل المنازل: أخبرنا يا نيونز، أخبرنا يا صاحب العين التي تبصر بما تفكر به الطفلة الصغيرة الآن! صف لنا الأم التي يبحث عنها الطفل، هل هي طويلة أم قصيرة، جميلة أم قبيحة، أخبرنا أين هي الآن ألست تزعم أن البصر مهم، هيا أخبرنا بكل ذلك أيها الكاذب المتحذلق!

وبمرور الأيام وبعد أن فاض به الكيل، يفشل نيونز في مهمته ليقرر الرحيل عن تلك القبيلة العمياء، التي تعج بأناس جهلاء يعشقون الجدل ويميلون دائما إلى نصر الباطل مهما كان الحق حفيًّا بالنصر.

حاول الهرب سرًّا، لكنهم لحقوا به بطريقتهم المخيفة الشبيهة بأفلام الرعب وسفاح المزرعة المهجورة.

يجد نيونز نفسه مجبرًا على الاعتذار، طالبًا منهم العفو، رافعًا رايته البيضاء قائلًا لهم: أعتذر إليكم أيها القوم العقلاء، أعترف أمامكم أني كنت مجنونًا فاقدًا للعقل، إنني لست مختلفًا عنكم، بل كنت أقل منكم درجة، سامحوني لقد كان عقلي مضطربًا قليلًا، لديكم حق، لا يوجد شيء اسمه البصر، أنا مثلكم تمامًا وليست هناك ميزة في هذه الحياة تجعلني مختلفًا عنكم كلنا في هذا العالم متشابهون، الاختلاف هو أسطورة لا وجود لها، أرجو أن تسامحوني لقد كنت جاهلًا بالأمر.

ولأنهم أناس رحماء لم يحتكوا بعالمنا الحقيقي المتوحش قرروا بكل طيبة وسماحة الصفح عنه، لكنهم قاموا بجلده دون الشعور بألم لأن هدفهم فقط هو الردع والحيلولة دون تكرار خطيئته مجددًا، ثم كلفوه ببعض الأعمال البسيطة كجزء من العقاب جراء فعلته الشنعاء.

وفي هذا الوقت بدأ نيونز يميل إلى فتاة وجدها جميلة ومختلفة كثيرًا عن بقية فتيات القبيلة، ولما تقدم لخطبتها لم تقبل عائلتها خاصة أباها وأمها، لأنهم

كانوا يعتبرونه أقل من مستواهم الإنساني!

هو مختلف كثيرًا عن البشر، ربما يعتبرونه مخلوقًا اقترب من الانقراض كالقرد السومطري والنمر السيبيري، أما فكرة اعتباره إنسانًا مثلهم فهي فكرة غير مطروحة في عقول سكان مدينة العميان.

لكن الفتاة كانت تميل لنيونز فعلًا، صارحته بحبها الشديد وأنها متمسكة به حتى لو اكتشفت أنه آخر سلالة من سلالة قرد البونوبو.

يجد الأب نفسه في مشكلة هنا مخلوق عجيب لديه فتحتان تتوسطان وجهه تجعلانه مختلفًا عنا، يرغب بالزواج من طفلتي! والمصيبة الأكبر أن ابنتي تعشقه ومتمسكة به.

لم يجد والد الفتاة الجميلة مخرجًا من هذا المأزق غير اللجوء إلى رأي الحكماء من القوم، وكان رأي الحكماء قاطعًا حاسمًا تجاه نيونز:

إذا أردت الزواج بالفتاة فعليك أن تتخلص من عينيك، هي من أفقدتك عقلك، وقتئذ تصبح عاقلًا مثلنا وغير مختلف، وزواجك من الفتاة بالتالي يكون أمرًا ميسورًا، فماذا ترى الآن يا فتى؟

في هذا الوقت أدرك نيونز أنه حان وقت دفع ضريبة اختلافه، وحكم أهل القرية بجلده وقيامه ببعض الأعمال عقابًا على هروبه، لم يكن هذا الثمن هو المقصود البتة.

بالطبع، اعترض الفتى اعتراضًا شديدًا، مصوبًا حديثه تجاه حبيبته لن أضحي بعيني بأي ثمن حتى ولو كان المقابل ذهبًا أو خلودًا، أنا لست مجنونًا لأوافق على طلب هؤلاء العميان الحمقى حتى وإن كان ذلك ثمنه حرماني الزواج من الفتاة التي أحببتها، البصر قبل الحب دائمًا وليس أحيانًا.

وفي وسط حديثه المضطرب، ترتمي الفتاة الجميلة مسرعةً على صدره، تبكي بجسد مرتجف في مشهد رومانسي يحتاج إلى قليل من الموسيقا الهادئة حتى يكتمل المشهد، ثم تمد الفتاة يديها حول خصره قائلة ليتك تقبل، ليتك تقبل يا حبيب عمري.

وبعد أن رأى الشاب دموع حبيبته ورجفة جسدها والشعر الناعم المنسدل على عينيها ورائحته الساحرة، كل ذلك قد زاد الفتاة جمالًا وسحرًا، قرر نيونز قبول العرض كي يتم اعتباره إنسانًا يستحق أن يكون زوجًا، أما غير ذلك فإنه ليس فقط سيُحرم نيونز من الفتاة التي أحبها، فمن المتوقع أنه سيصبح أول حيوان يتم وضعه بعناية شديدة في حديقة حيوان صغيرة سوف تشيدها مدينة العميان لاحقًا.

الغريب في ذلك أن مكانة نيونز نتيجة ذلك التنازل أصبحت وثيرة ومرموقة في نظر أهل المدينة وسكانها العميان، فقد صاروا يلقبونه بالسيد نيونز، وتمادوا في ذلك بإطلاق اسمه على أحد شوارعهم الرئيسة، وشيدوا له قصرًا كبيرًا كي يقيم فيه مع الفتاة التي أراد الزواج بها.

والآن تبدأ آخر أيام نيونز السمان مع حاسة البصر واللحظات الأخيرة التي ستجمع نيونز المسكين مع عينيه اللتين سترحلان للأبد.

هنا رأى مشهدًا قلما يراه، مشهدًا لا يمكن أن يكون قد جاءه في هذا الوقت، وفي خِضم تلك الظروف عن محض صدفة إطلاقًا، تأكد الفتى أنها رسالة مبهمة جاءت له خصيصًا، لا أحد غيره في هذا العالم تعنيه هذه الرسالة، انبهر ببريق النجوم وسطوع القمر مما أضفى على السماء وهجًا ذهبيًّا خلابًا، الجبال الهرمية ذات الرؤوس الحادة من حوله تصطف بهيبة فبدت أمامه عمالقة طيبين ينصحونه بوقار البالغين أنْ ارحل!

مشهد رهيب لم يره هنا طيلة إقامته في هذه القرية الملعونة بأهلها العميان، والأنهار والغابات، وروعة السحب في السماء، والنجوم اللامعة والقمر في اكتماله، كل شيء هنا يخبره بشيء واحد ارحل يا نيونز لا تفكر كثيرًا، أنت حقًّا مختلف يا فتى!

تتدفق التساؤلات في رأسه "كيف أتنازل بكل حماقة عن عينيَّ من أجل فتاة! أي مصيبة سأضع نفسي فيها، أنا حقًّا مختلف عنهم، وظل يردد مقولته أنا حقًّا مختلف، أنا حقًّا مختلف ولتذهب أحلامي التي ظننت أني سوف أحققها هنا إلى الجحيم!".

أسرع نيونز بالاتجاه إلى حاجز الجبال مستحضرًا كل مهاراته في رياضة التسلق، نزفت كفاه وانجزعت قدماه وتمزقت ثيابه، لكن ظلت الابتسامة لا تفارق محياه وعندما غربت الشمس كان بعيدًا جدًّا عن بلد العميان.

رفع عينيه وراح يرمق النجوم والقمر بسعادة وفرحة، وبعد أن تأكد أنه قد ابتعد، حمد الله على ذلك ومضى يركض سعيدًا، متحسسًا عينيه ليُطمئِن نفسه المرتبكة أنها ما زالت موجودة ويمكنه رؤية كل شيء.

هنا تنتهي القصة، إذا لم تتعلم شيئًا منها وتيقنت أنك مختلف ومميز عن أي مخلوق في العالم -معللًا بذلك أنها قصة أسطورية لا تمس الواقع بشيء- فاعلم أن المشكلة تعود إلي في الأساس؛ فلقد فشلت حبكتي الدرامية في إقناعك فأنا كما أخبرتك في مقدمة الكتاب، أخفق دائمًا في سرد الروايات والقصص، ولذلك قررت أن أحاول مرة ثانية وألا أستسلم مثل نيونز في بداية الأمر.

سأخبرك الآن عن قصة واقعية ومن المحتمل أنها أكثر رعبًا من قصة بلد العميان، ففي هذه القصة سترى أنه من الممكن أن يكون ثمن اختلافك هي حياتك لا عينيك فقط، وبدون مقدمات هيا نغوص في بحار قصتنا المؤلمة.

دعني أسألك سؤالًا في بداية الأمر هل سمعت من قبل عن فتاة عراقية اسمها تارة فارس؟

على الأرجح أنك لم تسمع عنها، أو ربما قد شاهدتها قبل ذلك على سبيل الصدفة في إحدى صفحات التواصل الاجتماعي أو في مادة فيلمية دون أن تعرف أنها تارة فارس بطلة هذه القصة.

وفي حقيقة الأمر لم أعرف هذه الفتاة إلا حينما أعلنت وسائل الإعلام العراقية والعربية عن مقتل فتاة تدعى تارة فارس، ناهيك عن شرائط الأخبار التي تسير أسفل القنوات وإلي أي مسافة وصلت التحقيقات في كيفية مقتلها.

سأخبرك عنها باختصار، تارة فارس عارضة أزياء عراقية، فتاة جميلة لا تملك في تلك الحياة سوى طفلة بريئة وبيت صغير، هي إنسانة لا أكثر، جميلة بعض الشيء، اختيارها لملابسها مختلف وغير مألوف في مجتمع محافظ كمجتمع العراق الذي عشت فيه شخصيًّا لسنوات.

فكرة الاختلاف بالفعل في هذا المجتمع الضيق في أعرافه وتقاليده فكرة صعبة للغاية، تكاد تكون مستحيلة في ظل قواعد صارمة وراسخة منذ مئات السنين.

ومع ذلك تبقى تارة فارس فتاة عادية، لم تؤذِ أحدًا قطُّ ولم تسخر يومًا من إنسان ولم تدهس قطة أو كلبًا صغيرًا قبل ذلك بسيارتها، كل ما في الأمر أنها أرادت أن تكون مختلفة في تفكيرها مختلفة في مظهرها، مختلفة في حياتها، مرنة قليلًا في بعض عادات مجتمع العراق وأخلاقه.

إلا أنها في الحقيقة قد تمادت قليلًا في اختلافها لكن هل تعتقد أن هذا سبب مقنع لقتل إنسانة وحرمانها من رؤية طفلتها للأبد؟ بالطبع الإجابة سوف تكون بالنفي قطعًا، غير أن الإجابة تصبح نعم في عقول بعض العميان والغساسنة من بني قومها.

تبدأ القصة الدامية بموسيقا نيتشه المرعبة، مع دقات طبول فارسية خفيفة تضيف جوًّا من الرعب المطلوب، تفطن الفتاة الجميلة أن هناك من جاء لقتلها، لقد عرفتهم من رائحتهم المتعفنة كرائحة خنزير ميت قارب على التحلل.

في البداية حاولت تارة الهرب عن طريق إخماد نار المدفئة الموجودة بركن حجرتها الصغيرة، لكن نار المدفئة قررت الانضمام إلى هؤلاء الخنازير القتلة فأبت أن تنطفئ بالرغم من محاولات الفتاة كثيرًا في إخمادها، وكأنها نار فارس لن تُخمد إلا بقدوم نبي.

قررت الفتاة الحسناء مواجهة مصيرها المحتوم، مرددة بقوة في الأعلى الأمر أفضل، في الأعلى الأمر أفضل.

قُتلت تارة فارس! لم يأخذ الأمر وقتًا، نحافة جسدها تدل على ذلك، بجانب الدماء التي صارت مثل خرير الماء القادم من شلال عظيم.

أرسل القتلة رسالة مبهمة يبشرون بها أسيادهم، ربما تكون مثلًا "أحدهم طار فوق عش الوقواق" أو تم دهس القطة بعناية.

سقطت تارة فارس وفي يديها دمية جديدة اشترتها لتفاجئ بها ابنتها

الوحيدة في عيد ميلادها، كانت تأمل بأن تسعد بها كثيرًا.

هدأت الموسيقا قليلًا وانتهى كل شيء الآن لتزف البشرى في أرجاء العراق، قتلت تارة فارس، إنه النصر الذي لا نصر بعده.

قتلت تارة فارس ولم تتحرر القدس، قتلت تارة فارس وما زال المسلمون في بورما يعذبون، قتلت تارة فارس وما زالت أرض آشور تعيش جحيمًا في جميع المجالات.

إذن، لم قتلت فتاة العراق الجميلة، لا يوجد مبرر واحد يستطيع إقناعنا بمقتلها!

يبدو أن المشهد قد اتضح، إنه الاختلاف يا صديقي، لقد قامت تارة بكشف هؤلاء الكهنة باختلافها، أظهرتهم بأنهم حفنة من المنافقين، حفنة من المتطرفين لا يكترثون لدين أو لأي قيم أخرى.

لقد خلعت عنهم أوراق التوت، فصاروا عرايا لا يستطيعون ستر أنفسهم إلا بقتلها، المصلحة فوق القيم، المصلحة فوق النفس، وليذهب الدين إلى مثواه الأخير لتستحق تارة فارس أن تكون صاحبة العينين في أرض يسكنها العميان بجدارة.

أخبروها بأنها في البئر العميق لا يمكنها الخروج، أبلغوها كي تصبح مواطنة عراقية عليها أن تخلع عينيها للأبد حتى تصبح كالبقية من بني جلدتها العميان!

لكن كيف لمن يرى الفجر اللامع، والشمس الساطعة بنورها أن يتنازل عن عينيه بتلك السهولة، مؤكد أن هذا سوف يُعد غباء لو أقدم على فعل ذلك ليكون قتلها ورقة التوت التي تستر عورة العميان الحمقى.

الآن قد فهمت قصدي يا صاح، عليك الآن الاستعداد لدفع ضريبة اختلافك إن لم تكن دفعتها وأنت لا تشعر، فتركك الوظيفة المرموقة سببه شعورك الدائم أنك مختلف علاقتك المضطربة مع زوجتك ربما يكون سببها الحقيقي أنك مختلف، حزنك وبؤسك وتذمرك من كل شيء ولأي سبب في هذه الحياة قد يعود إلى أنك مختلف، ولا تندم على شيء كهذا ولو كان الثمن الذي سوف تدفعه هو راحتك وسكينتك التي تتمناها في هذه الدنيا، فالله عز وجل حين خلقك متفردًا ومميزًا عن بقية أبناء جنسك كان ذلك لمهمة كلفك بها، لن تذهب إلا حينما تفي بها وتنتهي من أدائها على أتم وجه.

يمكنك أن تهدأ الآن يا رفيق المشوار، طريقي معك لم ينته بعد، أرغب أن تكون هادئًا طيلة أوقاتك معي في هذه الرحلة.

كرة القدم

في خلال أحد المشاهد المؤثرة في مسلسل تركي شهير، لم تسعفني الذاكرة تذكر اسمه في هذه اللحظات بالتحديد، فأنا من هؤلاء الذين انتهت علاقتهم بالدراما بصفة عامة منذ الحلقة الأخيرة من مسلسل "لن أعيش في جلباب أبي" الذي أعلن فيه عبد الوهاب الابن الوحيد المدلل عند أمه الحاجة فاطمة استسلامه رافعًا الراية البيضاء أمام التقاليد والقوانين التي صممها أبوه العِصامي الداهية، معلنًا فشله في الخروج من جلبابِ الحاج عبد الغفور البرعي.

وهذا ما فطن إليه بكل تأكيد "محفوظ سردينة" الذي ما لبث أن دخل في جلباب أبيه، ولم يترك فرصة للسنوات أن تنهش في عقله مثلما صنعت بعبد الوهاب، ذلك الفتى الذي ظن أن العقلية المختلفة وحدها قادرة على كسر المألوف.

ولكي أكون دقيقًا إلى أقصى درجة، فإن علاقتي بالفعل قد انتهت بالدراما في مصر مع المسلسل الرائع للفنان يحيى الفخراني "عباس الأبيض" الذي ما زلت أتذكر كل مشاهده، ولا يمكنني نسيان أي مشهد وإن مرَّ عابرًا من هذا العمل الدرامي العظيم، حتى أنك إن سألتني عن اسم ممثل في هذا العمل وإن كان مجرد كومبارس فسأخبرك باسمه على الفور.

وقد يفوق هذا المسلسل نجاحًا إن تم إنتاج مسلسل قصير يتحدث عن تاريخي وقصة حياتي، في هذه الحالة ربما تتغير وجهة نظري بخصوص متابعتي للدراما، حيث سنكون بصدد مسلسل درامي يتحدث عن شخص خاض بلاد العالم شمالًا وجنوبًا، وفُتحت على يديه بلاد السند والهند بخلاف الحصونِ الصغيرة أمثال حصن الكرك وسالزبورغ، حصن بابليون الذي قُمت بفتحه في أقل من دقيقة ونصف في مشهدٍ مهيب ترتعد له الأبدان، إضافة إلى بعض القلاع أمثال قلعة المدينة المحرمة في بلاد التنين قلعة ليدز وكيرفلي في ويلز، وختامًا بالقلعة الأشد متانة وصلابة قلعة "ماتسوموتو" ببلاد الساموراي!

وفي حالة إن كان عقد المسلسل ينص على أحقيتي باختيار اسم مناسب لهذا العمل الدرامي الكبير فسوف يكون بكل تأكيد، "لا شيء" وإذا أردت اسمًا يتعدى الكلمة سيصبح بالطبع "إياك أن تُصدق هذا الهراء!

يبدأ المشهد من المسلسل التركي بحديث لطيف بين فتاة وشاب مهووس بكرة القدم عاشق مشجع أصيل لأحد الأندية الموجودة في قريته، تقول الفتاة لحبيبها: أظن يا عزيزي أنه لم يكن ينقصنا سوى كرة القدم في حياتنا، حقيقة ماذا كنا سنفعل من دونها؟

– أعتقد أننا كنا سوف نتشاجر ونتعارك كثيرًا، وربما يأتي يوم أدُق عنقك من فرط حبي لك، أشكر الرب أنه أوقعني في حبال الحب مع رجلٍ عاشق لهذه الساحرة مجنون بها مثلك.

- إننا بتشجيعنا لكرة القدم قد أكملنا ما ينقصها، إننا الإجابة والكلمة الأخيرة في عالم اللعبة.

لتكون إجابة الشاب أكثر حسمًا، وبثقة مبتسمة تكتسي ملامحه: بل نحن يا حبيبتي من نكون ناقصين إن لم تكُن كرة القدم موجودة في عالمنا!

مشهد يلخص كل ما أريد توضيحه، قطعة جماد جلدية، ضئيلة الحجم، لا ترى، ولا تسمع، ولا تعرف من يركلها ويحملها، لكنها تجعل الكثير يتساءل بحيرة شديدة ينتظرون إجابة تشبع ذلك العقل الحائر والقلب الذي يميل ناحية عشقها منتظرًا المنطق والإقناع حتى يصبح أحد عشاقها الذين سوف يسعون خلفها مثل الجنود خلف القادة.

ما الذي يجعل الملايين يتنفسونها كالهواء ويدمنونها مثل الفودكا! وربما يصير يومًا كاحلًا في العالم، ذلك اليوم الخاوي والجاف الذي لا تُقام فيه مباريات لكرة قدم.

تشعر أن ذلك اليوم كأنه دولة حبيسة لا يحدها البحر والنهر من أي جانب، بالفعل يصبح اليوم خانقًا للغاية.

علامات تخبرك بمدى الغضب والانزعاج جراء غيابها، فتلك المشاجرة التي نتج عنها دماء وكسور سببها هو غياب كرة القدم، وجه مديرك العابس في ذلك الصباح الأسود على رأس كل الموظفين سببه أنه قد مضى يومان ولم يشاهد فريقه المفضل!

أمر في غاية الدهشة؛ فما السر وراء هذه الجلدة المستديرة التي لا يبلغ وزنها خمسمئة جرام! ما السبب الذي يجعل جيوشها بالملايين يتجمعون في مدرجات لمدة تسعين دقيقة حابسي الأنفاس، وقد ينسون في حضرتها الطعام والشراب، الكل على أهبة الاستعداد، المباراة قد اقتربت من البدء!

العين لا ترى شيئًا غير تلك الكرة وهي تتلاعب بقرنيتها في جميع الاتجاهات، لا حديث يُحكى في هذا الوقت إلا تلك الطابة المتدحرجة، والمهاجم الأحمق الذي لا يبالي بكم الفرص التي يقوم بإهدارها، ولا أقصد هنا بأي شكل من الأشكال كريم بنزيما أو وليد آزارو، لكن لو طلبت القسم مني أني لا أقصدهما بالتحديد، ففي هذه الحالة لن أستطيع القسم، وسأبحث عن فرصة تمنحني الخروج من هذا المأزق الكبير.

وقد تتصارع الدول وتتناحر الشعوب ويظلون في حروب وصراعات لسنوات عديدة، ودول صديقة تهدد، ودول كبرى تدعو إلى ضبط النفس، وما هي إلا لحظات ويشتعل فتيل الحرب العالمية الثالثة التي سوف تلتهم كل شيء أمامها أخضر، ويابسًا، وطفلًا، وشيخًا، والرعب يملأ قلوب الناس في كل الأنحاء، فالقنبلة لن تفرق بين الخِراف والماعز، لن تنظر بعين المواساةِ في وجهِ طفل رضيع أو سيدة عجوز!

وفي وسط الغبار المتناثر ورائحة البارود التي تطغى في الأركان تأتي كرة القدم في مباراة واحدة تنسف بشغفها ومتعتها كل ذلك العدوان بين الدول

المتنازعة والغاضبة، وهنا يدُق السؤال خيمته بقوة وشدة، ما الذي تملكه تلك الجلدة الصماء من قدرة حتى تنهي بسحرها أي خلاف أو تناحر بين الشعوب!

الأبيض بجانب الأسود، الغني بجانب الفقير، اللص بجانب الشريف السفاح يتقاسم الكُرسي مع الحمَل! أي نوع من السحر تمتلكه الساحرة المستديرة حتى تفعل كل ذلك!

ما الذي يجعلنا نقطع مسافات بالأميال لمشاهدة بعض الأقدام تتلاعب بكرةٍ جلدية لا قيمة لها على الإطلاق، وتُدوي الصرخات حين يلمس ذلك الجلد المدور تلك الشبكة المكونة من الخيط الغزير المتشابك!

هكذا تدور التساؤلات عن القيمة والفائدة، وتُشهِر علامات التعجب مدافعها داخل عقول الحائرين والساخطين في كل بقاع الأرض.

قد تسمع هذه الكلمات المنطقية من أبيك، مرددًا أسفه على ذلك اليوم الذي جلبك فيه لهذا العالم، وقد تنصت إلى هذه المقولة من خالك أو عمك قائلين بتهكم: الفاشلون أمثالك دائمًا ما يتعلقون بأشياء لا قيمة لها!

وبينما أنت تقفز وتصرخ فرحًا لهدف رائع قام فريقك المفضل بإحرازه والظفر بالبطولة، التي غابت أعوامًا مديدة عن جدرانه، تُهاجمك شرارة السخط والازدراء القادمة من عين جدك الغاضب من مشهد فرحتك المُزري، الذي لا يختلف كثيرًا في نظره عن فرحة شامبنزي الحديقة حين تُرمى إليه ثمرة الموز الطازجة.

وبكل أمانة يا صديقي الكروي لا أستطيع أن أعطيك إجابة يمكن أن نعتبرها منطقية وشافية، لكل تلك الأسئلة العليلة، لكن كل ما يمكنني قوله هو أننا نجد أنفسنا في عالم هذه الكرة نعثُر على ضالتنا التي نظل نبحث عنها دون جدوى، وحين تبدأ المباراة تجدها كامنة في أعضائك كاملة، بلا وصف، ولا كلمة تشابهها فقط عليك أن تستسلم لسحرها وقوة شغفها؛ فالحياة بالنسبة إلينا مراحل عديدة، بالطبع كرة القدم ساكنة في كل تلك المراحل ولو اكتظت بملايين الأعمال والأحوال، هي الحضن الوحيد في العالم الذي باستطاعته أن يحتوينا جميعًا، هي قلعة من السعادة تُحصننا من القلق والكآبة.

وبصفتي من عشاق الكتابة، وأحد المولعين بالورقة والقلم وتلك الكتب المُهمشة التي أعشق التهامها فلا أرى اختلافًا بين كرة القدم والكتابة، حيث يربطهما عامل مشترك وهو المتعة والشغف؛ فإن كانت الكرة تركلها الأقدام بطاقة التتويج وروح الجرينتا الإيطالية فكلماتي كالكرة تركلها سنون الأقلام الحادة بطاقة الحبر وتداعي الأفكار، ففي اللحظة التي تحتضن الكرة الشباك وترتفع الآهات والصرخات بسبب هدفٍ يدفعك إلى القفز مثل حيوان الكانجارو نشوةً بالنصر المنشود، يكون الشعور نفسه الذي أراه في عين القارئ حين يهنئني بأنني قد أبدعت في مقالة ما، ويضيف سائلًا بشغف بارز عن أعمالي الكتابية القادمة ومتى سوف أعلنها حتى يتسنى له قراءتها بكل حماسة!

ثم دعني أسألك عن الأشياء التي يقوم بها ميسي وكرستيانو ونيمار

وغيرهم من اللاعبين المهرة الأفذاذ داخل المستطيل الأخضر هل تعتبرها مجرد أهداف ومراوغة والسلام، أم رواية مليئة بالشعر تفوح منها نسمات الموسيقا، مقالة اشتملت على كل الكلمات التي تعشق قراءتها والمصطلحات الرنَّانة التي تعتاد ترديدها واضعًا أسفلها عشرات الخطوط.

تخيل معي لو أراد رونالدينهو وإنييستا وزيدان كتابة مقالة ما، فتحدثوا فيها عن أمور الطبخ، أو شرحوا لنا بالتفصيل كيف يقوم حيوان القبقاب البحري بحماية صغاره من الأسماك المفترسة!

فنقرأ عن بيرلو الذي كان يجب أن يكون برازيليًّا على حد قول الداهية اللاتينية ريفالدو، وعبر كُتيب صغير يشرح فيه كيف تخترق الكرة جدارًا من خمسة رجال أصحاب الطول الفارع، هل تخيلت معي كيف تبدو هذه السطور، ستبدو أروع وأعظم بكثير من ملحمة جلجامش المنحوتة في الألواح الملكية لعظيم آشور "بانيبال المعظم"!

ويهُم بوفون بالرد على منحوتة بيرلو في ملحمته الخالدة القوية قوة أجداده الأباطرة، فتراه ينحت كتابًا عتيقًا ينبعث من زواياه عِطر القديسة سيسيليا في مشهد نومتها الأبدية.

"إلا أنا بيرلو" هكذا اختار بوفون اسم مجلده المكسو باللون الأسود والأبيض لون قُفازه الأنيق، واصفًا لنا كيف تجرأ في وقتٍ من الزمن بإعلانه تحديه رونالدو الظاهرة في إحدى ليالي الكالتشيو المثيرة، يا رباه، أحدهم يريد

أن يقف في وجه القطار الذي يهرس اللحم!

ويستفيض في هذا التحدي كاتبًا "كان ذلك أغبى قرار اتخذته في حياتي، لقد توقف الزمن للحظات مندهشًا من هذا القرار، وما إن حلت المواجهة شعرت وقتها أني فسيلة نخل صغيرة ترتسم الثبات أمام شجرة الأوكاليبتوس العظيمة، سيارة لامبورغيني ساحرة لكن الحظ العاثر دفعها إلى السير عبر طريق صُمم خصيصًا لدبابات التمساح ودبابات التاي.".

لقد كانت ليلة مرعبة بكل تفاصيلها، عقارب الساعة شُلت حركتها أصبحت تسير ببطء مثل سلحفاة السولكاتا، ثم ينهي حديثه برجاءٍ كتبه بحبرٍ تُخالطه الدموع "تذكروني دائمًا، لطالما أسكنت السعادة في ركنٍ من أركان منازلكم!".

وبمجرد انتهاء بوفون من كتابة مجلده يقوم محمد صلاح بكتابة مقالة مصوبًا حديثه ناحية بوفون قائلًا "تتذكر جيدًا حين كنت بقميص الفيولا ما صنعته أمام ناظريك يا حارس الروم؟ يوم غرست راية جدي الفرعون وسط مرماك الذي انتهكت حُرمته دون شفقة!".

وها هو جوزيه مورينيو، المدرب الساخر عاشق كسر الحدود والخروج عن النص، الشخصية الاستثنائية في كل شيء، الرجل الذي ربما تنتقده وتلعنه في كل وقت وكل حين، ساخطًا عليه وعلى خطته الكارثية التي أودت بالفريق إلى الهلاك لكنك وبعد كل هذا تجد نفسك دون وعي تلهث خلف أجدد

تصاريحه، محدثًا نفسك بتخمين لذيذ وضحكات وبعين الإعجاب "سيفعلها المجنون لا محالة سوف يقصف جبهة الصحفي المسكين حالًا.".

فتراه يخترق سطور وليد الفراعنة المُتحمس قائلًا بكل فصاحة ولباقة معهودة: لا تغتر بنفسك يا حفيد الفرعون، مقعدك الأزرق ما زال قائمًا لم يتغير، إن عالمي كان بمثابة الجحيم بالنسبة إليك، لا تختبر صبري حتى لا أرحب بك بطريقتي التي رحبت بها الكثير من الضحايا "مرحبًا بك في جحيم السبيشال وان!".

ثم يقوم إبراهيموفيتش بالرد عليهم جميعًا في كتابه النرجسي الساخر المُحمل بالدعابات وكلمات الزهو والكبرياء "أنا زلاتان" بقوله "تاريخكم أيها الأقزام، لا يتعدى طول مُنخاري الجميل"، وحينما نكون في حضرة السلطان علينا التوقف قليلًا كون المشكلة لا تكمن فيما يفعله وهو في هذا العمر بقدر السؤال الذي أريد أن أطرحه وهو إلى متى سوف يتوقف عن العبث بمجريات اللعبة! العمر يقول توقف، المنطق يقول توقف، بديهيات اللعبة تقول توقف، مهلًا، فمنذ متى والسلاطين تتلقى أوامر فذاك شأن الرعية، ذاك السلطان زلاتان!

وقد يأتي يوم أكتب قصة تحكي عن وحش البحيرة وقيامه بالتهام أطراف الأطفال، أو عن رسالة حب من جندي ألماني إلى حبيبته عُثر عليها بين أشلائه إبان انتهاء عملية فولكان، وربما أكتب قصيدة مدح لسلطان من السلاطين

رغبة في بعض الذهب، غير أنني أملك السيطرة على قلمي في أي وقت أردت فيه التوقف إلا معك يا "أبو تريكة" يصبح القلم هو السيد، هو من يحدد بداية الكتابة ونهايتها.

وما تلك المقالة التي يحملها ساعي البريد مقتربًا أكثر وأكثر من بوابة البيت القديم وقصر السيدة العجوز قاصدًا جحيم "الديل آلبي" معقل الفريق المُخطط بالأسود والمسيطر على مقاليد الأمور في أرض القياصرة، لكنها رسالة تبدو أنها جاءت خصيصًا إلى أحدهم، مكتوبة بالدموع ممزوجة بالفقدان الحار والألم القاتل!

ومن سواه تبكي جدران السنتياجو برحيله، ذلك الرحيل الذي دك الحصون الملكية، وهز هيبة التاج القابع فوق البيت الأبيض! إنها رسالة من الفريق الأبيض ملك إسبانيا وحاكمها إلى ابنهم الثائر على أبيه، الذي أخطأ في حقه بقرار عدم التجديد لجوهرة كالينجام الفريدة من نوعها.

إلى الفتى الذي ذهب وأقسم أنه لن يعود، مُلقيًا قميصه الأبيض متهكمًا بحُرقة "لنر من سيحمل هذا القميص من بعدي، إنه ملك البرتغال وعظيمها وحاكمها الشرعي لكرة القدم عبر تاريخها "كرستيانو رونالدو" صاحب الأقدام الفولاذية، مُحطم الأرقام القياسية والفلكية على حدٍّ سواء، إنني أفتقدك يا بني، نفتقدك جميعًا! أي جريمة ارتكبناها في حقك أيتها المطرقة القادمة من الجحيم، بجسدك الذي صُمم بعناية شديدة، وتلك الأقدام الممتزجة أنسجتها

بالغبار الذهبي القادم من العوالم الأخرى، التي انبثق منها المحاربون والخارقون ومُخلصو الأرض من كل الشرور.

إنها الخطيئة التي لا تُغتفر، والسهم الغاضب الذي لن يعود أبدًا، كل الجدران تسأل متى ستعود، تتساءل الأعمدة الخرسانية البيضاء ماذا حدث ولم رحل، من أغضب الدون وجعله يمضي دون رجعة!".

ويلقي عُشب البرنابيو كلمته الأخيرة صوب أصحاب البزة السوداء: اللعنة عليكم، لن يسامحكم الرب على هذا الرحيل أبدًا، لقد كان رحيمًا بضعفي ولوني الأخضر الخلاب، بالرغم من أن قدمه القوية قادرة على الفتكِ بالحصون، وتناطح قوتها قذيفة المدفع المدمرة.

أفتقدك حقًّا يا ولدي، أفتقد من بعدك الشعور بالأمان والعزة، وأنا من كنت أصنعها وأجبرت عمالقة القارة على الركوع تحت أقدامي يا غُلامنا الراحل رحيل الأبدية، إنك من كنت تمنحني نشوة الانتصار قبل أن تعلن المباراة بدايتها نصرخ بالنصر قبل أن يطلق الحكم صافرة النهاية.

أفتقد حقًّا الاستناد إلى كتفك حين تحل الصعاب، وحينما تُقرع طبول الحرب كنت أول من نراك في المقدمة دون رمح ودون درع وسيف، يكفيك رداء الجندية الذي يليق بك دائمًا يا حفيد آلفونسو وسبستيان.

كنت بأقدامك تحارب الجيوش، حافرًا أخاديد من الدموع داخل عيون مشجعي الخصوم، لقد كنت يا بني أعظم كوابيسهم، وكنت تجعل أيام مواجهتهم لنا هي السواد الحالك والظلمة التي تفتِك بنور الشمس.

أيها الساحر العظيم، السامع لعويل العاشقين السائلة ورجاء القلب المهمَل متى العودة يا بني! البيت ينتظرك وجدرانه تتلهف لسماع وطأة أقدامك، وجودك معي درع أتحامى به في وجه الجميع، سور شاهق فاق أسوار عكا وسور الصين العظيم.

إنني مشتاق إلى كل تفاصيلك ابني الوسيم، أشتاق إلى رؤية عضلات جسدك التي كانت تزين ملعبنا الملكي،

لن ننساك أبدًا يا بني، وكيفَ ينسى الكيان من أعطاه الجوهرة المفقودة في تاج بِهرام! لكن عليك أن تعلم أمرًا يا غلامي الغاضب أن الشبل إذا نفَر عن محيط مملكة أبيه تمردًا فإن موته قدر محتوم، ضباع الغابة ستلتهمه ونسور البراري ستلتقطه.

وداعًا كرستيانو، وداعًا صاروخ ماديرا الذي لا ينضب، أأخطأتَ؟ بلى، أخطأت، لكن متى يُعاتَب الأب على صفع ولده المدلل!

وما هذا الكتاب الذي يحمل أربعة من "الصبية" يجلسون في مقهى وسط مدينة الهواء العليل بالقرب من لابلاتا، حيث الرياح الطيبة ترفرف في كل

أنحاء العاصمة الأرجنتينية بيونيس آيرس، يتناولون أطراف الحديث البيزنطي.

يبدأ أحدهم بالحديث بعد أخذ رشفة من الشاي الأرجنتيني الساخن قائلًا في سخط ونفور: لاعب متخاذل هذا الليونيل، فليذهب إلى الجحيم هو وأمثاله من المتخاذلين.

ثم يقوم الثاني متسائلًا: وماذا صنعت أقدامه المدمرة لوطنه!

فقام الثالث يتحدث في دهشة وتذمر: أرأيتم أيها الرجال ما يفعله في إسبانيا وفي معقل الكامب نو!

ثم يشتد عود الرابع إثر هذا التساؤل غاضبًا: أيها الأحمق وماذا ينفع إذا كان المرء شحيحًا على وطنٍ يقطنه الفقراء، كريمًا على بلدٍ تُغسل أرضها بماء الكرز؟

وما إن انتهوا من حديثهم حتى وثب عليهم نادل المقهى كالأسد اليافع الذي كان يسترق لهذيانهم عن كثب، وبهدوء وثقة قام النادل بسحب مقعد خاوٍ من خلفهم فجلس ببطء وتأنٍ شديدين في حين يتأمل غطاء المنضدة الغص بالتجاعيد والمنحنيات، بعين يخالط بياضها الازدراء وقليل من الغطرسة، وأصابع متداخلة بعضها في بعض متكومة بشكل قبضة متشابكة تلتصق بأسفل رأسه.

يرفع النادل عينيه ببطء وتأنٍ ناحية الصبية الجالسين، ثم يلقي سؤالًا فاترًا لابسته نبرة ظافرة تشي بانتصار كاسح ومتوقع، حسنًا أيها الحمقى، لقد حان دوري الآن، أريد إجابةَ سؤالي، الإجابة الخاطئة تعني إضافة تكاليف باهظة على حساب الشاي!

أعتقد أنه لن يمكنكم تحمل الفاتورة، كونكم صعاليك اقترفتم أعظم خطيئة في حق الملك، والآن أخبروني من أتى أولًا ميسي أم كرة القدم؟

إنني دائمًا ما أتساءل بجديةٍ، أيهما قد أتى أولًا، كرة القدم أم ميسي؟

وبينما تتدفق الإجابات لتخبرني أنها كرة القدم، هي من جاءت ثم جاء ميسي ومن قبله أساطير اللعبة على مرِّ الزمن، يأتي ذلك البرغوث بغتةً مدمرًا كل قواعدي وإجاباتي التي دونتها، كل ذلك خلال تسعين دقيقة فقط، ليجيب وبصوت هادئ ينُم عن الوحدة والانطواء: بل أنا من أتيت أولًا يا صاح فأجد نفسي دون أي تفكير أقول هذا صحيح، من كان يدري أنَّ هذا الشاب الصغير الذي يعشق الوحدة والحديث العابر، ذلك القصير القادم من بلاد يقطنها الفقراء والبسطاء، من بين أناس لا يمتلكون شيئًا غير كرة عفا عليها الزمن، وعشب أخضر باهت اللون، وعارضة أكلها الصدأ أن يُغير معالم وملامح كرة القدم، ويُدَشن بأقدامه قلاعًا من الإعجاز الكروي.

من كان يفطن أن هذا الفتى سيعبث بكل الثوابت والقواعد المتعارف عليها، ماضيًا في طريقٍ خاص يصنع لنفسه فيه قواعد وأعراف وتقاليد ملكية تتناسب مع قدراته الفنية الخارقة.

ومن كان يظن أنَّ ليو سيجعل من كرة القدم لعبة صائغةً وفي المنال، هل كنا نتخيل أنه سوف يأتي إنسان يُراقص قتلاه بسرعة أقدامه ومهاراته التي لا يضاهيها إمكانيات أي لاعب فوق هذه البسيطة!

أعوام تأتي وأعوام تمضي، وكل الأشياء تتغير صورها ومشاهدها حولنا لكن تبقى الشمس والقمر والنجوم وميسي أشياء لا تتغير معالمها مطلقًا.

إننا مدينون لميسي بالكثير، ربما نلقبه بالمتخاذل، وقد نذُمه في النشيد الوطني، وبالرغم من ذلك يبقى السؤال مطروحًا، أيهما جاء أولًا كرة القدم أم ميسي!

ولكي أغلق هذه الدائرة تمامًا وللأبد، وحتى لا يتجول فيها العابثون وأطفال اللعبة سوف أكون ملزمًا بطرح سؤال آخر يكون الختام في معادلة هذا البرغوث.

ماذا بعد ميسي!

إننا لو تتبعنا تاريخ فريق بعظمة وكبرياء برشلونة، سوف نعرف أنه من الفرق التي تصنع أمجادها على عاتق الأساطير، ماضيين على قاعدة "اجلب

أسطورة وليرحل من يريد"، وهذا يتضح بداية من كرويف، ماردونا مرورًا بروماريو والظاهرة ثم رونالدينهو وختاما ميسي، فريق يعتمد طول تاريخه على نهر الأساطير الذي لا يجف أبدًا؛ رحل ريفالدو فما المشكلة، لقد جئنا برونالدينهو، ثم رحل رونالدينهو، وما المشكلة، لدينا ميسي!

وكما أن المعجزات قد انتهت برحيل الأنبياء، فكذلك الأساطير سوف تنتهي باعتزال الدون والبرغوث، ومع سياسة البيع التي تتخذها الإدارة والتي كان آخرها رحيل آرثر إلى السيدة العجوز، والهزيمة المذلة من عظيم ألمانيا بثمانية مهينة لا شك أن البارسا سوف يواجه مصيرًا ليس بالجيد على الإطلاق

لذلك فإن فكرة الانفصال باتت ضرورة مُلحة لشعب الكتلان، كي يحافظ برشلونة على مجده المهدد بالنسف، حيث إن التربع على عرش الدوري الفرنسي أفضل من منافسة بلد الوليد على مراكز تمنحه المشاركة في الدوري الأوروبي، الأمر الذي سوف يضع برشلونة في مواجهة نارية ومرتقبة أمام توبول كوستاناي عملاق كازاخستان.

على مسؤولي البارسا أن تسأل نفسها هذا السؤال قبل أن يداهمهم الوقت فيستيقظوا على كابوس لا أتمناه لفريقٍ عظيم مثل برشلونة، فميسي لا يمكنه بمفرده أن يصنع كل شيء؛ فهو وإن كان خارقًا لكنه يبقى في النهاية إنسانًا ينام ليلًا ويصحو نهارًا، والمفاجأة أنه دائما ما يلبي نداء الطبيعة ويذهب إلى قضاء حاجته مثلنا تمامًا!

إنه لأمر مخجل أن تضع تاريخًا بأكمله على أقدام لاعب بعينه، ما هكذا تبنى الفرق، ما هكذا يبنى التاريخ يا عشاق الكتلان!

وطالما تطرقنا إلى الحديث عن التيكي تاكا أجد نفسي مضطرًا إلى الحديث عن أعظم خبرائها "جواورديولا" لكن قد يزعج حديثي عنه الكثير من محبيه لا سيما عشاق السيتي كونه المدرب الحالي للفريق حيث سأتحدث عن فلسفته التي لا تعتريها المرونة وإنما الهجوم والهيمنة طيلة المباراة، لكن دعني أسألك يا جواورديولا، هل الذي يصلح أمام برايتون يصلح أمام الليفر، هل ما يمكن فعله لإيقاف صلاح وماني هو ذاته ما يمكن فعله لإيقاف فريق يتمتع باللعب الجماعي؟ لقد حكم الريال العالم لسنوات لتنوعه في التفاصيل، في حين كان مورينيو عادلًا وقت أن منح البارسا الكرة واحتفظ لنفسه ذات الأذنين حين كان مدربًا للإنتر، ذاك هو المنطق أما غير ذلك واعتقادك أن أسلوبك الجامد قادر على هزيمة الجميع فسوف يكون السقوط عظيمًا يومًا ما.

والآن دعني أخمن قليلًا عن هذين المحاربين اللذين طرحا بأدرعتهما المصنوعة من عاج الأفيال، حتى الخوذة الرومانية التي تُزين رؤوسهما لم تسلم من الحتف، معلنين عزوفهما عن الحروبِ وترك مقدمة الجيش إنه ملك روما العظيم "توتي" والأمير القابع بين التلال السبع "دي روسي" فارس روما وقائد الذئاب النبيل.

وما هذه الدقات الموسيقية المنتظمة التي تنفُث من هذا الكتاب المكسو بلون كتالونيا الأزرق والأحمر! فتجد أول سطوره تخبرك بصوت جبلي قائلة بلسانٍ فصيح مثل لسان شعراء البادية، وكأن النابغة الذبياني سيُلقي بتُحفته الماحقة قبيل ملحمة الغساسنة وحرب السِّباق "نحن يا فتى أبناء الإقليم العظيم، نحن الأقلية في هذه الرقعة التي تعِج برائحة الزيتون وعطور الأندلس الباقية، سوف نغدو دولة في يوم ما، مملكة حصينة تتكسر قرب حصونها أقدام الخصوم القوية، سنصبح ملوك هذه اللعبة وستجتاح التيكي تاكا المتوحشة جيوش القوى العظمى الموجودة في تلك الأرض ونرسخ حكمنا في كل مكان؛ إننا بتلك المعجزة البشرية الواقفة على قدمين سنجتاح الأخضر واليابس، ويصبح العالم بأراضيه ووديانه وبحاره هو ملك لأحفاد كرويف.".

وما ذلك الكتاب الأبيض المُرصع بالجواهر والماس، وأي رسَّام بارع نحت هذا التاج على أوراق الكتاب! بالتأكيد لقد علمت الآن عمَّا يتحدث في صفحاته، إنه يتحدث عن الملوك، هؤلاء الذين رسَّخوا حكمهم في قلب القارة العجوز بسطورٍ وألقاب من ذهب، ثلاثة عشر كأسًا للأبطال، رقم مخيف استطاع العملاق الملكي تحقيقه وسط هؤلاء الوحوش الضارية، لا صوت يعلو أنحاء القارة العجوز فوق صوت أحفاد فرانكو الرائعين العِظام، المملكة المضيئة دائمًا "السانتياجو برنابيو" معقل النادي الملكي، أصحاب الأرقام القياسية في كل البطولات، لا أحد يمكنه مواجهة الملوك، فكن حذرًا ولا تكن

مُتعجرفًا، أنت تتحدث عن الموت المحتوم إذا أردت مواجهة ذلك المقاتل القادم من ملحمة الإلياذة ومن شظايا العروش المنجرفة محارب المدريستا "سيرجيو راموس" وستغدو غارقًا في بحر كوستا دلا لوث الساحر إن قررت بكل جرأة غير محسوبة مواجهة كروس ومودريتش، فاحترس من فضلك إنك أمام البينز العظيم.

إنه ريال مدريد ملك إسبانيا ووريثها على العرش، القلعة الملكية المهيمنة على كل شيء.

وأي لون أحمر قانٍ هذا، لقد فاق لون الكتاب لون الدم! وحين تستجمع شجاعتك وتفتح الكتاب، ستعرف الحقيقة كاملة، إنك الآن في كَبِدِ السماء سوف تسمع هتافات الصامدين في كل الأرجاء، زئير الأسود يرُج السماء بجنباتها في عبارة واحدة "لن تمضي وحدك أبدًا".

وبين رعب البدايات وهول النهايات يمكث ديربي الغضب، الديربي المدجج بالنار والأقاويل والرهانات، كثير من التساؤلات تُطرح، لمن تنحاز الأميرة اليوم، إلى رجال السانسيرو النبلاء، أم إلى محاربي الجوزيبي مياتزا! والسؤال الذي يفرض نفسه بقوةٍ فوق ساحة هذه الأوراق، كيف ستنام ميلان اليوم!

وإن أردت كتابًا يتحدث عن المحاربين الشجعان والأسطورة الملقبة بالموت الجميل، لا يمكن لأي أرض أن تتحمل وجود هذا الكتاب فوق قشرتها الضعيفة أمام وزنه الثقيل ثُقل الجبال الرواسي إلا هناك في آخر حدود الأرض، بين جدران علبة الشوكلاتة الحُلوة بمظهرها والمُرة مرار العلقم عند تذوقها، تقرأ أولى كلمات مقدمة الكتاب المرصعة بجمرات النار "مرحبًا بك في قلب البومبنيرا"، إنها الحرب السنوية التي لا تنتهي أبدًا، الصداع المُزمن في رأس الحكومات والرؤساء، الحرب الأرجنتينية الخالدة والموقعة الراسخة في الأذهان والقلوب ملحمة عنيفة تلد من أحداثها السمفونيات المذهلة، إنه النزاع الدامي صراع الأزرق والأبيض، صراع البوكا جونيور، والريفربلايت.

هكذا تبدو حقيقة كرة القدم في نظري، وفي نظر جميع العاشقين لها حرب من تسعين دقيقة لا تقل قوة وضراوة عن أية معركة شهد التاريخ بشراستها، حرب أكثر منطقية وإقناعًا مقارنة بحروب دموية طاحنة، فأين المنطق في زعيمٍ يحارب من أجل مجدٍ شخصي يولد من دماء الملايين، وفي المقابل هل سمعت عن كرةِ قدمٍ انفجرت في وجه أشخاص خلفوا قتلى ودماء في كل مكان!

أيهما يسكن فيهما المنطق، وهل تراه ساكنًا في معركة ستالينجراد التي نتج عنها موت أكثر من مليون جندي بجانب آلاف من المدنيين، أو موقعة الآنفيلد بين العدوين اللدودين، التنين الأحمر ليفربول ووحش الرُقعة مانشستر يونايتيد!

وماذا ترى في تلك المعركة البشعة التي اشتعل وطيسها قرب ضفاف نهر السوم العظيم في فرنسا وخلَّفت فقط في يومها الأول قرابة ستين ألف من القتلى أغلبهم من الأطفال الذين جُندوا إجباريًّا، هذا بجانب عدد لا يقل عن عدد القتلى من المصابين، فهل ترى هذه المعركة أكثر منطقية، أو موقعة المِستايا تحت ظل الخفافيش خاصة حينما يكون الضيوف هم كبار القوم في إسبانيا جحيم فالنسيا دائمًا ما يمتعنا، فهل تعتقد أن الحرب الفيتنامية صاحبة المليون والنصف قتيل ممتعة بدمائها التي روت جميع أشجار الغابات في فيتنام، أو تلك الترانيم الساحرة والهادلة المنبثقة من كلاسيكو الأرض! أين يعثر المنطق على مأوى في ظل حرب قبيحة مثل حرب الثلاثين عامًا، والحرب النابوليونية التي نتج عنها ما يفوق عشرة الملايين قتيل!

بالطبع لن يجد المنطق لنفسه مأوى بين كل ذلك العبث، لكن يمكنني إخبارك بثقة أن المنطق يُعشش بطمأنينة مخلوطة بالمرح في كل جنبات حديقة الأمراء وأركانها، وهل تلك الدماء التي سالت بالملايين في حرب التايبينغ الصينية لأجل رجلٍ أحمق مثل مانشو منطقية، أو أن ذلك العرَق الذي ينهدر مثل الشلال من رأس بارتيز حارس عرين الديوك في يومٍ يعتبره عشاق السليساو يومًا للنسيان.

هل قنبلة ناجازاكي وهيروشيما اللتين أبادتا قريتين وأزالتهما من الوجود وقتلتا الآلاف منطقية أكثر، أو تلك القذيفة الساحقة التي انفجرت في قلب

الأوليمبكو القادمة من فوهة أقدام توتي لتسكن في ركنة الشيطان بعيدًا عن قفاز بوفون!

هل الصاروخ العنقودي الذي يفتك بالأبرياء والمدنيين تاركًا خلفه الأمراض والعدوى منطقي في نظرك، أو صاروخ ماديرا الذي دك دون رحمة حصن شتيجن العتيد في قلب الكامب نو وأمام أعين الحشود من مشجعي الإقليم الثائر!

أي الكلمات جعلتك تشعر بقشعريرة، خُطبة هتلر إبان احتلال فرنسا، وعبارات الزهو والفخر لستالين قرب اجتياح برلين، أو كلمات الجارديان البريطانية في قولها "لا شيء يمكنه أن يضُخ الدم في العروق أكثر من مواجهة الأهلي والزمالك"! وما زالت جوهرة البرازيل السمراء تُصِر على قولها "إن المصنع الذي جاء بي قد أغلق أبوابه فور إنتاجي"، وفور إعلان انضمام ساني إلى كتيبة البايرن، اكتشفت أن فكرة هتلر في احتلال العالم فكرة غير منطقية، حيث تتمثل في رؤيته يومًا من الأيام الجنس الآري يحكم كل الأجناس، ومن أجل ذلك قام الزعيم النازي بتأسيس جيش مرعب استطاع أن يجتاح به نصف الكرة الأرضية تقريبًا، إذ قام بتقسيم الجيش النازي إلى كتائب عدة، ،وزعت عبر جبهات القتال المختلفة، كل جبهة يحكمها فيلق يحوي جنودًا مدربين وأقوياء، ثم جاء بقادة مثل فون مانشتاين وروميل، وهيملر وغيرهم من القادة والخبراء ليتولوا نيابة عنه زمام الأمور.

ولقد عانى هتلر كثيرًا نتيجة كل ذلك حتى سقطت برلين وتهاوت جدران الرايخستاخ، وانتهت حياته منتحرًا في قبو مظلم برفقة زوجته الجميلة إيفا براون.

لقد كانت حيلة هتلر في احتلال العالم حيلة حمقاء، خطة أراها لا تستحق كل تلك المعاناة، كان يكفي أن يجمع ساني الليفا جنابري في فريق واحد ومن خلفهم وحش الكراكن العظيم وجدار برلين العتيد "مانول نوير" وسواء في هذا الموسم أو المواسم القادمة ليس لدي أدنى شك أن أوروبا لم تر الأسوأ بعد، هتلر لم يكن آخر تهديد للقارة العجوز.

وكم تغزوني الشفقة من حين لآخر تجاه زوجتي المستقبلية، كيف سأعترف لها أن التسكع في الشوارع السياحية والذهاب إلى المولات غير لائق لي، وأن مشاهدة مباراة لكرة القدم أفضل بالنسبة إلي، حقيقة سوف أحتاج إلى زوجةٍ بتصميمٍ معين تتفهم وتستوعب هذا السخف بالنسبة إليها!

فمشاهدة مباراة ولو غير مهمة مثل لقاء خيتافي وغرناطة هي كالتبضع وشراء الأحذية ذات الكعب بالنسبة إليها، الفرحة نفسها التي أشاهدها مرسومة على وجهها لحظة عثورها على فستان أحلامها، وهي الفرحة نفسها لحظة بدء ليلة كروية من ليالي التشامبيونزليج.

كيف أصارحها أنني لن أستطيع الخروج اليوم بصحبتها لمشاهدة فيلم رومانسي في السينما كما وعدتها لأن اليوم هو ليلة الحسم بالنسبة إلى نابولي وميلان أيهما يقتنص المركز المؤهل إلى دوري الأبطال!

كيف أقنعها أن فكرة التبضع التي تعشقها لا قيمة لها أمام مواجهة ذئاب روما وصقور لاتسيو في قلعة الأوليمبيكو!

كيف ستبتلع حديثي الرومانسي حينما أقول لها بعيون ذابلة إنها في مقدمة حياتي، لكني -من داخلي- أعتصر ألمًا يا حبيبتي، لقد فقد إنتر المقدمة، ورجال السيدة العجوز لن يقبلوا بالتنازل عن مقدمة الأسكوديتو مرة أخرى!

وإذا كنت من عشاق الكتب العلمية، ولنفترض أنك تعيش في مدينة تعِج بالعلم ورائحة اختبارات المعامل، وترتدي نظارة العلماء المهيبة والوجه الجاد الذي لا يعرف الضحك والدعابات، فلا تعتقد أنك قد ابتعدت عن كرة القدم، فهي اللعبة التي يسكن فيها العلم وتكمن فيها جميع الظواهر العلمية.

ولتخبرني فيزيائيًّا عن قذيفة روبرتو كارلوس في مرمى فرنسا بجانب الارتقاء الخارق الذي قام به الجولدن بوي وقذيفته المقصية في شباك الفريق السماوي مانشستر سيتي!

وبالإضافة إلى كونك عالِمًا لا يُشق لك غبار، أعلم أيضًا أنك فيلسوف عميق الفكر سابق لعصرك في تفسير المفاهيم، لذا أرجو أن تفسر لي مفهومًا محددًا لمصطلح الإبداع في عالم كرة القدم!

حسنًا، دعني أتقمص شخصيتك الفلسفية العميقة تلك، وأجيب أنا نيابة عنك.

بداية الإبداع هو مصطلح بثوب الصفة، هو صفة أصيلة ولصيقة للاعب المتكامل، هو الضلع الأخير في معادلة الأسطورة الكروية، لذلك تتسم دائرته دائما بالضيق، بحيث لا يمكنها أن تحوي سوى اللاعبين الأفذاذ، ومما لا شك فيه أن أحد أفرادها هو لاعب السيتي الأشقر وفتى جواردیولا المدلل، نظرًا إلى قدرة هذا اللاعب البلجيكي العجيبة على كسر حاجز التفكير والزمن!

فبينما أنت تتمعن ركلته للكرة قبيل اختراقها دفاع الخصم واقترابها من قدم المهاجم، يكون هو قد ذهب إلى زمن ما بعد التسديدة مراعيًا أن تجمع ما بين العنف والمتعة.

السر يكمن في علاقته بكرة القدم التي تتعدى علاقة لاعب بكرة جلدية صماء، هي علاقة شاب أشقر وسيم بفتاة أقل منه جمالًا، موعد غرامي لن يخلو من العناق والمضاجعة العنيفة.

لذا لو افترضنا أن كل منطقة في الملعب يسكنها وحش ما، فمن المؤكد أن الرقعة الأمامية يحكمها "كيفن دي بروين".

أما وإن كنت طالبًا في كلية الهندسة، فأجب السؤالَ التالي: إذا كانت المسافة بين كرستيانو والأرض ثلاثة أمتار وسبعين سنتيمترًا، وكان طول حجم

الكرة يساوي نصف الإزاحة مضروبًا في ضعفها، فما هي سرعة الكرة منذ خروجها من رأس كرستيانو إلى أن تهادت في مرمى البلوسير تشياتي؟

وإذا كنت من عشاق أفلام الإثارة سوف أحدثك عن ليلة إسطنبول الخالدة، التنانين الحمراء في مواجهة قياصرة الكولوسيوم، يا لها من ليلة مثيرة بكل تفاصيلها.

وإذا ما زلت تريد مزيدًا من الإثارة فدعني أشرح لك بالتفصيل كل ما يتعلق برأسية راموس القاتلة التي دمرت حصن الأتليتيك في آخر اللحظات، وإن كنت من مدمني أفلام الرعب أنصحك بالدخول في محيط الرعب الأعظم "جحيم السيجنال إيدونا بارك" الرعب يدِب في قلوب الأعداء أمام الأمواج والأهازيج الصفراء، الموج الأصفر متأهب دائمًا للفتك بكل شيء، عليك أن تسأل الريال عن هذا المشهد سيخبرك أنها ليلة لا يتمنى تكرارها.

ولو أردت مشاهدة فيلم إفريقي مرعب فبالتأكيد سوف يكون في بلاد نيلسون مانديلا ملعب "لوفتوس فيرسفيلد" المرعب، القابع في أقصى شمال المدينة الهادئة بريتوريا، وبالطبع تعلم عن أي ليلة كئيبة أتحدث، الليلة التي سقط فيها نسر الأهلي بخماسية مهينة، مرحبًا بك في جحيم الماميلودي صنداونز.

وإن كنت من المهتمين بتقارير تتناول الحديث عن الكوارث والموت، لا بؤرة يمكنك اشتمام الموت فيها إلا في ذلك المكان المترامي، حين يحِل البوكا جونيور ضيفًا غير مرحب به في مواجهة جماهير وصاحب الدار الريفربلايت.

أرى الإجهاد قد أصاب عينيك وترغب في أخذ قسط من الراحة، إذن فلتكن استراحة المحارب، ولن تجد مكانًا يمكنك أن تأخذ استراحتك القصيرة فيه سوى هناك في استاد النور، في حضرة الأسطورة "خوسيه ألفالادي" ليخبرك أن الدون قد مرَّ من هنا.

وإن كنت من متابعي أفلام الخيال العلمي فإن ليلة الريمونتادا الخيالية بمحيط اللآنفيلد كفيلة بذلك، يوم أن هاجم زلزال شديد يسمى أوريجي كل منازل إقليم كتالونيا، لقد كانت ليلة سوداء لن ينساها سكان الإقليم الثائر وستبقى ذكرى قبيحة لن تُمحى من عقول عشاق البلوغرانا في جميع أنحاء العالم.

كما أنني أعلم تمام العلم أنك شاب مثقف عاشق للمعلومات العامة خاصة الرياضية منها، وكم كنت تعُض أصابع الغيظ جراء حرمانك المشاركة في برنامج من سيربح المليون، فما رأيك إن قمت باختبار ثقافتك المزعومة تلك في صورة أقوال من المدح قيلت في حق لاعب واحد بعينه، هيا بنا.

باتو: إن يوم اعتزاله كان أكثر الأيام حزنًا في حياتي، إنه بحق أعظم لاعب في التاريخ المخضرم.

كابيلو: هذا اللاعب لا يمكن مجاراته فوق البسيطة الخضراء.

الأسطورة فرانس بكنباور: من الصعب مراقبته طيلة التسعين دقيقة.

زين الدين زيدان: إنه لاعبي المفضل وكنت أستمتع باللعب معه طيلة فترتي في ريال مدريد.

أسطورة برشلونة كرويف: من المضحك مقارنته مع أي لاعب في كرة القدم.

المدرب العجوز زاجالو: إنه يلعب كرة القدم ببهجة الأطفال ويمكنني القول الآن لقد جاء خليفة بيليه، والمصنع الذي يزعُم بيليه أنه أُغلَق بعد تصميمه مؤكد أن أبوابه لم تقفل جيدًا.

الساحر رونالدينهو: إنه مثلي الأعلى ولا مثيل له في عالم كرة القدم.

ونختم هذه الإشادات بتصريح أحزن الجميع صادر من اللاعب نفسه وقت إعلان قراره بتعليق حذائه، والاكتفاء بما حققه طوال مسيرته: لقد حانت لحظة الوداع، حقًّا لم أعد قادرًا، فذهني يريد مواصلة اللعب، وجسدي يحدثني بقوةٍ أنْ لم يعد بإمكانك فعل ذلك!

كل هذه الصفات تتواجد في لاعب واحد لا يمكنني الإفصاح عنه ولا تنتظر أن أخبرك به لأنها تعتبر عندئذ إهانة عظيمة في حق هذا اللاعب الفريد من نوعه، الذي كان في نظر خصومه المدافعين وقت مواجهته بمثابة حكم بالأشغال المؤبدة.

وإن كنت ترى معرفتك بهذا اللاعب من وجهة نظرك تعتبر من الأحلام، فدعني أحدثك عن حلمٍ آخر يتمثل في أمنية لك ترجو فيها مقابلة ذلك الفارس الجسور، الفلاح الأسكتلندي البسيط ويليام والاس الذي واجه جحافل الإنجليز سارقي الأرض الخضراء بقيادة ملكهم ذي الساق الطويلة "إدوارد الأول"، والملقب "بمطرقة الأسكتلنديين" نظرًا إلى جرائمه الشنيعة في حقهم عقابًا لهم لندائهم الثائر والمتكرر بالحصول على الحرية والاستقلال.

والآن لك ما تتمنى لقد أصبحت جنديًّا في صفوف الأسكتلنديين الأحرار، لحظات ويظهر أمامك ويليام والاس، وتتساءل متعجبًا ريثما تراه وجهًا لوجه "إنه ليس طويلًا كما أخبروني ببلوغ طوله السبعة أمتار، ليس بخارقٍ تنفُث من عينيه النيران الحارقة ومن مؤخرته تخرج الصاعقة!".

لكنه بالفعل ويليام والاس، لقد قال مصوبًا عينيه ناحيتك: إني أرى جيشًا كاملًا من أبناء وطني المخلصين يحاربون جنبًا إلى جنب في مواجهة الظلم والطغيان، لقد جئتم إلى هنا في تلك الأرض المقدسة لكي تحاربوا فئران ذي الساق الطويلة، وهذا يعود إلى سبب واحد وهو أنكم أحرار، وأنا بالفعل لا أرى أمامي الآن غير الأحرار.

والآن يُلقي القلب الشجاع سؤالًا على الجنود، وما زال لم يُبعد ناظريه ناحيتك: ماذا تفعلون من دون الحرية، هل تستحق قداستها أن نحارب ونموت من أجل الظفر بها! يجيب بنفسه السؤالَ: نعم من أجلها نحارب،

ومن أجلها نموت، ويمكنكم أيضًا أن تهربوا الآن، وتضمنوا الحياة والعيش بعض الوقت، ولكن إلى متى تعيشون! ستموتون حتمًا، تمامًا مثل جدك الذي مات على فراشه لأنه لم يكن حرًّا، فإذا أردت أن تكون حرًّا مثل طيف القمر عليك أن تموت هنا فوق تلك الأرض المقدسة. هيا نذهب إلى هؤلاء الأوغاد كي نخبرهم بلسان سيوفنا أنهم يمكنهم أن يسلبوا أرواحنا لكن لا يمكنكم أبدًا مهما فعلتم من جرائم أن تنزعوا منا الحرية.

كلمات ما أعظمها، أشعر أنك ترجو سماعها مرة أخرى، فإذا أردت تكرار سماعها، عليك أن تشُد أحزمتك ناحية أراضي الفايكينج نمكث قليلًا وسط مدينة التراث "أدنبرة" حيث هي مجرد أيام ويشتعل فتيل الديربي العظيم، والصراع الأزلي بين وحوش السيلتيون "السيلتيك"، والفهود الجائعة والمستعدة دومًا "الرينجرز" على أرض الإيبروكس، أو بين أروِقةِ السيلتيك بارك.

في هذه اللحظات حين يعلن الحكم بداية المباراة سوف تشعر أنك لست هنا، لست أمام رجال يرتادون السُّترات الرياضية والجوارب عابِقة الألوان حيث في الخسارة ستشعر أنك في معركة "فالكيرك"، وفي لحظات الفوز اعلم أنها نسمات النصر العليل القادمة من رقعة السعادة "ستيرلينغ".

أما أنتِ يا حبيبتي التي لا تكُف عن الشكوى، وأبلغتِ الجميع أنكِ في مؤخرة الجدول في حين أن تلك المستديرة الصماء في مقدمته، رومانسيتك

الدافئة أظنُها رومانسية سريالية تنتهي بإفلاسي وتضمحل بافتقادي السيارة والذهب، وإذا أردتِ أن تتحسسي العشق الحقيقي الذي يفوق حبك المزروع في طين المال،

تلحظينه في حب جيرارد لشقيقته الليفر، يمكنك أن تشاهدي الدماء تتساقط من عينيه إثر طعنة ديمبابا القاتلة، ترقبي دموع الندم التي أنبتت زهرة الدوري الذي ظل بعيد المنال حتى جاء القتلة اللطفاء.. الفرعون، أسد التيرانجا، راقص السامبا الأنيق، ومن خلفهم برج لانكشير العملاق فيرجيل فان دايك.

تتساءلين عن ماهية الحب! محفورة في الدم على ذراع دي روسي "روما أنتِ عروسي الوحيدة، أنتِ حبي الوحيد!".

أأبهرتك الكلمات! ماذا لو أخبرتك عن حب ديلبييرو نحو جدته العجوز وقت هبوط اليوفي، إذ أقسم الملك على العهد ألن تمضي وحدك أبدًا سيدتي العجوز، سأظل كتِفًا تتكئين عليه، حصنًا منيعًا تحتمين خلفه، سأكون بجانبك دائما في لحظات النصر وأيام الانكسار.

أأعجبكِ الأمر، كيف أصف لك ذلك الحب الممزوج بالزُّرقة الكاثوليكية بين زانيتي وأرضية ميدان الجوزيبي الياتزا!

ولو أردتِ حُبًّا يبرِز العطاء، فبالتأكيد تعثرين عليه في مسرح الأحلام بين أقدام الفتى العجوز ذي الخُصلات البيضاء "رايان جيجز" وعشيقته الأبدية اليونايتد.

أتبحثين عن حب يعلمك التضحية، انظري إلى الأموال التي ارتمت تحت أقدام توتي الذي رفض ترك قلعة الذئاب!

أتخيلتِ لحظةً صورة الأوليمبكو دون توتي، أو شاهدت عرشًا خاويًا دون ملك!

وما زال طنين كلمات السير أليكس فيرغسون تطرق أذنيَّ بقوة الرعد في قوله عن قلب الأسد غاتوزو "لو أضمن موافقته الانضمام لقلعة الشياطين لأتيت له زحفًا".

والآن عليكِ أن تشاهدي التضحية في أبهى حُلتها، يوم إعلان اتحاد الكالتشيو قراره بهبوط وحش تورينو للدرجة الثانية فيقفز الأغلبية من السفينة، لكن بوفون يبقى على العهد قائلًا "أموت وأدفن في الديل آلبي!".

وتبقى كلمات القديس وأمير القلوب راسخة في أعماق قلبي وعقلي لحظة إبلاغه عرض الهلال المادي الذي لا يمكن لعاقل أن يرفضه من أجل مبدأ قابل للكسر والتحطيم بقوله "إذا رحلت ورحل غيري فمن يبقى إذن!".

هذا كل ما أملكه يا طفلتي الجميلة، ليس في قلبي حب إلا لتلك الأميرة الصغيرة، فعشقنا لكرة القدم يتمثل في كل شيء يتعلق بها وكل ما يخص كرة

القدم نحن نعشقه.

قد نرى عشقنا لها في سُترات اللاعبين، في جواربهم، في أحذيتهم التي نحلم باقتنائها يومًا، في اللاعبين ذاتهم، إن تعلقنا بلاعب معين هو سببه الأساسي عشقنا الدائم لكرة القدم، هي ما أشعر بجانبها بالحب الحقيقي، هي العالم الملموس لأمثالي من المهمشين والثائرين وعاشقي كسر الروتين، لاعبون يذهبون وآخرون يعتزلون، ويبقى عشقي لها نهرًا لا يجف أبدًا.

إن حياتي يا فتاتي العاشقة مليئة بالأخطاء والحماقات وبعض الأوغاد! أكاد أقسم أن كرة القدم هي الشيء الوحيد الصحيح في حياتي المعتمة، هي النقطة المضيئة في سديمِ اعتاد على الظلام وسواد الأغلفة من حوله، ثم ينتهي يوم مليء بزخم كرة القدم، ويبدأ يوم آخر لا ندري ما الذي ينتظرنا فيه، نشعر أننا في غيابها المرير ولو لبضع دقائق أننا بصدد فاصل عن الحياة يستمر بغيابها ويتلاشى بقدومها؛ فنطرح على أنفسنا كثيرًا من التساؤلات التي من شأنها أن تجعل نومتنا غير هادئة على الإطلاق، ماذا سيصنع فريقي المفضل اليوم، يا إلهي سوف يغيب أفضل اللاعبين في الفريق، كيف سيكون حال الفريق في غيابه، وغيرها أسئلة تغزونا كالسهام المارقة حيرة وريبة مثل ديدان جائعة تنخر داخل عقولنا!

حقًّا كرة القدم لا تساوي شيئًا، فكرة القدم هي كل شيء.

الخاتمة

لا تسل من أنا!

وفي ختام رحلتنا السعيدة بالنسبة إلي، وغير المطمئنة بالنسبة إليك وبينما تُشد مكابح القطار إيذانًا بنهاية الرحلة قد يتساءل بعضهم من صاحب هذا الكتاب؟ شريف محمد كمال، حسنًا ماذا بعد!

لم نرَ هذا في أي كتاب قرأناه قبل ذاك، فمن المعتاد في نهاية العمل الأدبي يتحدث المؤلف عن نفسه قليلًا، الاسم، والجامعة التي تخرج فيها، ونبذة عن تاريخ حياته، وكم نيشانًا حصل عليه وكم وسامًا مُنح له؟

كم كان طيب القلب لدرجة أنه يتبرع سنويًّا بمبالغ طائلة للفقراء والمساكين، ولم ينسَ قطُّ هؤلاء البؤساء القاطنين جنوب الصومال، وشمال أريتريا، والمضطهدين في بورما، والحطابين في روما، والخبازين في برد الشتاء القارص، لذا فقد كان من المنطقي ألا أذكر تفاصيل عن حياتي سوى اسمي لسبب بسيط ألا وهو أنني يا رفيق الدرب لم أصنع كل ذاك، أنا مجرد شاب صنع جسرًا ورقيا صغيرًا تتلاقى فيه دروب كل من قرأ هذا الكتاب وتلك غايتي.

وبالنسبة إلى خلو الكتاب من صورة للكاتب كما هو متعارف عليه فهذا يعود إلى سبب يتعلق بالقواعد والقوانين، حيث أرى أن وضع صورة شخصية

سواء على صفحات التواصل أو على غلاف كتاب لا بدَّ أن يخضع لمعيار محدد من الوسامة، وبعد قياس درجة وسامتي وجدت أنها لم تبلغ حتى نصف المعيار الذي يسمح بوضع صورة لي على الغلاف الخلفي!

وبالمناسبة نتيجة أسعدتني كثيرًا، فما الذنب الذي اقترفته حتى تشتري كتابًا يحمل صورة كفيلة بتعكير مزاجك الجيد، فالكتاب لن يدفع بالبلاد إلى طريق التقدم، ولن يمنحك سعادة كتلك التي يمنحك إياها فنجان القهوة وقت سقوط مطر الشتاء!

وبالنظر إلى سيرة الكاتب الخاوية من أي إنجاز يذكر، وإلى ذلك اليوم الذي يحقق فيه إنجازًا يصلح للذكر نكتفي الآن بالاسم فقط "شريف محمد كمال".

شرفت بك كثيرًا أخي القارئ، وأرجو أن تكون قد سعدت برفقتي طيلة رحلتنا معًا.